محمد الرابع الحسني الندوي

الأدب الإسلامي
وصلته بالحياة

مع نماذج من صدر الإسلام

قدم له
سماحة الأستاذ الجليل

أبو الحسن علي الحسني الندوي

مؤسسة الرسالة

الأدب الإسلامي

وصلته بالحياة

مع نماذج من صدر الإسلام

توطئة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم النبيين وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد: ـ

فهـذا بحث كنت أعددته مساهماً في الندوة العالمية الأولى للأدب الإســلامي المنعقـدة في دار العلوم ندوة العلماء في عام ١٤٠١هـ، شرحت فيه صلة الإســلام بالأدب، وصلة الأدب الإسلامي بالحياة، وهما جانبان من المعرفة يسترعيان منا الانتباه.

لقد ظن كثير من الناس أن الأدب إذا كان جاهليًّا فاسقاً كان عريقاً في أدبيته، وإذا كان دينيًّا لم يستحقَّ أن يدعى أدباً، لأنه خلا من المتعة واللهو.

صحيح أن الأدب قد يكون فاسقاً، ولكن الفسق ليس من مقـومات الأدب، ولا من خصائصه اللائقة، مهما كثر ذلك في النصوص الأدبية، ومهما اشتد إقبال الناس عليه، كما أن الأدب

قد يغلِبُ عليه طابَـع الدين، ويصبغُه بصِبغته، ولكنَّ ذلك لا يفقده القوة والجمال.

أما بالنسبة إلى الإسلام فالأدب قد يكون مغلوباً بالصبغة الـدينية كما يكـون في الابتهالات والدعاء والوعظ الديني، وقد يكون في إطار الحياة العامة الملتزمة بالإسلام، والحياة في الإسلام حياة واسعـة، تتسـع مع تنـوع الحـاجـات الإنسـانية وأحوالها وشؤونها، ولذلك لا يعجِزُ الأدب في الإسلام عن تلبية حاجات الإنسان الطبيعية، ولا عن التمثيل لصور الحياة الإنسانية المتنوعة الكثيرة.

ولا يشعُـرُ في الأدب الإسلامي بعجز أو قصور إلا الذين يتصورون في الإسلام نفسه العجز والقصور مع أن الإسلام منه براء، وخـير مثـل في ذلك حياة الرسول ﷺ، فقد كانت حياة إنسانية حافلة شاملة، وقد صورها لنا أدبه ﷺ وأحسن تصويرها، ولها نماذج متنوعة و كثيرة.

لقـد حاولت استعـراض ذلك كله في بحثي هذا، وقُمت بمقارنة الأدب المخضرم كذلك بين عهديه الجاهلي والإسلامي، وقلت فيها: إن عهده الإسلامي لم يكن أضعف من عهده الجاهلي.

ولما وجدت أن بحثي هذا قد بلغ من الاستفاضة قدراً يحسُنُ فيه بأن يُفرد في كتاب بعينه، وإن كان صغيراً. اقترحت ذلك على رئيس الندوة العالمية للأدب الإسلامي سماحة الشيخ أبي الحسن الحسني الندوي حفظه الله، فتفضل بقبول اقتراحي، وتكرم أيضاً بكتابة مقدمة عليه، أفاض بها عليه قيمة وجمالاً، فله لائق امتناني و شكري.

وأخيراً فإنني أدعو الله سبحانه وتعالى أن يتقبل مني هذا العمل، ويجعله في نصرة الحق وفي رضاه، وله الحمد في الأولى والآخرة.

م. ا. النّدوي

ندوة العلماء - ١/١/١٤٠٤هـ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المقدّمة

لسماحة الأستاذ الجليل الشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي

الحمد لله الذي خلق الإنسان، وعلمه البيان، وأرسل رسله بالهدى والتبيان، وأرسل أشرفهم وخاتمهم بأشرف كتاب وأبلغ بيان، وبعد:

فقد بقي الأدب في فترات طويلة من التاريخ في كثير من الأمم تحت رحمة الأدباء والكتّاب، والباحثين والمؤرخين، الذين اعتادوا أن لاينظروا إليه إلا من زاوية الصناعة والفن ولايعتبروه في غالب الأحوال ـ إلا أداة تسلية، أو آلة طرب، أو طريقة إظهار براعة، أو وسيلة تحقيق مآرب، أشبه شيء بفن من فنون الوشي والتطريز، أو التحلية والتطرية، أو مظهراً من مظاهر «الفروسية» ـ بأوسع معانيها ـ الكلامية، أو «السياسة البلاغية»، وكان شبيهاً

ببلبل غِرِّيد سجين، فإذا كان طائراً مدللاً في قفص من ذهب، تُقدم له أطايب الطعام والشراب، في صِحاف من ذهب وأكواب، تَغَنَّى بمدح سيده بأطيب الألحان، وإن كان طائراً مهجوراً في قفص، أسلاكه من حديد، يُضَيَّق عليه في الطعام و الشراب، و يُقتَّر عليه في الرزق، صدع بالهجاء والرثاء، والعتاب والسباب، أما أن يكون طائراً حرًّا طليقاً، يرفرف بجناحيه، و يطير في الأجواء، و يحلق في السماء، ويقتات كيف يشاء، ويسجع كيف يشاء، فلا!.

وكان من المؤسف أن الأدب ظل مدة طويلة تحت رحمة هؤلاء الباحثين والمؤرخين، تعريفاً ووصفاً، وعرضاً وتحليلاً، ووزناً وتقييماً، وتاريخاً وترجمة، فلا يتعرف به من بدأ يشدو في لغة من اللغات، أو يريد أن يتذوق الجمال في أدب أمته، ويطلع على مقدرتها البيانية، إلا في هذا الإطار الضيق، والتصور القاصر، ويؤلف كاتب أو مؤرخ كتابه في وصف الأدب والأديب، ويعرض أمثلة ونماذج من الأدب المنثور، والكتابة البليغة، فيختار أكثرها تنميقاً وأغناها زخرفة لفظية، وبلاغة صناعية، ويأتي الآخرون فيترسمون خطاه، فإما يكتفون بنقل ما اختاره المؤلف الأول، وإما ينتهجون منهجه في النقل والاختيار، ولا يتعبون أنفسهم في استعراض ذخائر الأدب استعراضاً جديداً، واستخراج نفائس من الثروة الأدبية المطمورة، وبذلك يطغى لون واحد من الأدب على

جميع ألـوانـه وأساليبه، ويتصور كثير من دارسي الأدب ـ حتى أصحـاب الاختصـاص والبحوث فيه ـ أن أدب هذه الأمة قد استُنْفـدت قوتـه، وأثـيرت دفائنه، وقد أصبح من قَبيل إضاعة الوقت العودةُ إليه مرة أخرى، والبحث فيه عن شيء جديد، مع أن مااستخرج منه وعُرض في مجاميعه الأدبية، إنما هو غَرْفٌ من بحر، وأن المكتبة الأدبية ـ نقولها عن الأدب العربي الذي ألممنا به بعض الإلمام بصفة خاصة ـ تكاد تكون رِكازاً أدبياً، تنتظر هِمماً عالية، ونـظراتٍ واسعـةً، وأيدياً أمينـة قوية، وتصـوراً للأدب صحيحاً واسعاً، وهياماً بالجمال والقوة والحياة وبلاغة التعبير ودقة التصوير ومس القلوب وإثارة النفوس والقدرة على تحريك العاطفة وحاسة الجمال، وإن وُجد ذلك في مجال أطبق الأدباء المقلدون على أنــه لا صلة له بالأدب والبـلاغـة، بل هو والأدب على طرفي نقيض، وقد بقي الأدب التقليدي ـ وبالأصح الأديب المقلد ـ قروناً متطاولة يَعاف هذا الضرب من البيان، ويأنف من الدنو منه أو الاعتـزاء اليه، كالـوعظ والإرشـاد، وكـلام الـزهد والنسك والعقـائـد والـديانات، والطب والعلوم الرياضية وعلم الحيوان والنبات، وعلم النفس، والرسائل التي كتبت بطريقة طبيعية لا يتصـور كاتبهـا أنـه سيطلع عليها أديب، أو تنشر في زمن من الأزمـان، كرسـالـة الأم إلى أبنـائهـا، أو الأخ الكبير إلى أخيه الصغـير، أو مذكرات ويوميات، أو انطباعات أو انعكاسات،

يقيدهـا كاتبهـا لنفسه، وقد يحب أن لا يطلع عليها غيره، وقد تكون هذه القطع أكثر جمالاً، وأقوى تأثيراً ومثالاً للبلاغة، من كثير مما كتبه الكاتبون ليُخَلِّدَ ذكرَهم ويُضفيَ عليهم ألقاب البليغ الكبير، والكاتب القدير، و الأديب الشهير، لأن الأول أقرب إلى الطبيعة وأكثر اتصالاً بالحياة، وأصدق تعبيراً عن خَلَجات النفس ودقات القلوب، وأسرع دخولاً إلى أعماق النفس الإنسانية، وأكثر مسًّا للقلوب وتحريكاً للمشاعر، والثاني يفقدُ هذه المعاني، ويتجرد من هذه الأوصاف.

ويحلو لي أن أنقل هنا قطعة مما جاء في مُفتتح هذا الكتاب الذي نقدم له تحت عنوان « صلة الأدب بالحياة »، يقول المؤلف:

«الأدب يمثـل الحياة ويصـورهـا، ويعـرض على القارىء والسـامـع صوراً تنعكس وتبـدو من مجالات العيش المختلفة، ويعرض عرضاً جميلاً ومؤثراً لشتى جوانبها وأشكالها، فتبدو فيه ملامح الكون والحياة وأشكالها المتنوعة، فعندما يفوتنا النظر إلى الحياة مباشرة، ننظر إليها ونشاهدها في مرآة الأدب، شريطة أن يجيد الأدب عمله، وتصدُق من صاحبه مقدرته، وتحسُن ملكته، وبذلك يصبح الأدب سبباً لتخليد أحداث الحياة وصورها، فهي تُلْمَسُ وتشاهد ـ ولو بعد وقوعها بزمن بعيد ـ إذا بقيت العبارة المصـورة لها، وبقي التعبير الفني الجميل عنها، وبقيت معانيها

وكلماتها مفهومة مثلما كانت مفهومة في أوانها.

فبالأدب يصل الإنسان إلى فهم ظواهر الحياة وتذوق كيفياتها، وقد يكون هذا الفهم والتذوق أحسن وأقوى من فهمها وتذوقها مباشرة بغير واسطة الأدب، ولو أن الظواهر الحقيقية هي أقرب منالاً، ومن السهل أن تُسْبرَ أغوارها بصورة مباشرة، ولكن الأدب ينوب عن ذلك مناباً كبيراً وواسعاً إذا اختفت أو غابت الظواهر الحقيقية والوقائع العلمية.

ويتسع الأدب باتساع الحياة، وتتعدد جوانبه ونواحيه كما تتعدد جوانب الحياة ونواحيها، ويستطيع به القارىء أو السامع أن يُطِلَّ على حياة البعيدين في المكان أو السالفين في الزمان، مهما قَدُم تاريخهم أو بعدت أوطانهم».

وقد كان قلب هذه النظرية الخاطئة الطارئة على الأدب العربي ـ التي أساءت إلى قيمة اللغة العربية وسعتها وجمالها وتدفقها بالحياة ـ وإدالة الأدب العربي ممن صوره تصويراً قاتماً كالحاً عبوساً، والإنصاف له، وإيتاؤه حقه من الجهاد في سبيله، وإنقاذه ممن جَنَوْا عليه، يحتاج كل ذلك إلى خطوة جريئة وشيء من الثورة في التفكير، ومغامرة في سبيل تحريره من أسر المحتكرين له ولتاريخه وتعريفه، الذين حفروا حوله خنادق لايتخطاها إلا

مجازفٌ بنفسه وشهرته، ونصبوا حوله سرُادِقات لا يدخلها إلا من تزيا بزيِّ الأدب، وحمل شهادة مكتوبة بأقلام هؤلاء المحتكرين.

ولعـل دار العلوم التابعة لندوة العلماء كانت في مقدمة من خطا هذه الخطوة الجريئة، نحو إبانة الأدب العربي الصحيح، الحي القوي، الجميل الجليل، الذي بقي قروناً طويلة مطموراً في صفحات من الكتب التي أُبعدت عن ركن الأدب والبيان في المكتبـة العـربية العـالمية، ووضعت في ناحية بعيدة عن الأدب واللغة، بحيث لا يتبادر إليها ذهن مؤرخ الأدب، ولا باحث في البيان والبلاغة، وكان نتيجة هذه المغامرة الأدبية أو الثورة في عالم الجمع والتأليف، كتاب « مختارات في الأدب العربي » في جزأين و « مقـدمتـه » التي نادت بهذه الحقيقة بصوت عال، ولكن في أسلوب أدبي، وكتاب « منثورات من الأدب » و « الأدب العربي بين عرض ونقد » وكلاهما لصاحب هذا الكتاب الذي نقدم له.

ثم كان من ضمن هذه المساعي المشكورة والخطوات الجريئة المبرورة، عقد ندوة عالمية للأدب الإسلامي في رحاب دار العلوم ندوة العلماء في ١١/١٢/١٣ من جُمادى الآخرة عام ١٤٠١هـ حضرها عدد وجيه مشرف من عمداء الأدب العربي في كثير من الجـامعـات العـربية والهنـدية، والمشتغلين بالبحث والتـدريس والتـأليف في الأدب العربي، وكان صاحب هذا الكتاب السيد

محمد الرابع الحسني الندوي الذي نقدم له، في مقدمة من تبنى هذه الفكـرة، وحمل أعباء هذه الندوة، ويرجع إليه الفضل فيما حققته هذه الندوة من نجاح، وحازته من ثقة، وكَسَبته من شهرة، وقـد كان جديراً بذلك لأنه عميد كلية اللغة العربية وآدابها في جامعة دار العلوم لندوة العلماء، والداعي إلى هذه الفكرة من زمن قديم على بصيرة، والمطلع على أحدث ما كتب ويكتب في هذا المـوضوع، ولأنه كثير التردد والزيارة للعواصم العربية، ومراكز الثقافة الإسلامية الأدبية، ورئيس تحرير صحيفة «الرائد».

وقد كتب السيد محمد الرابع هذا البحث لِيُعْرَضَ في هذه الندوة، وعنوانه «الأدب الإسلامي وصلته بالحياة»، وقد بحث فيه صلة الأدب بالإسلام بصفة خاصة، وقد شرح جوانب هذا البحث في توسع وإيجاز، وبين ميزة الأدب الإسلامي بين الآداب العـالمية وسعتـه، وعُنِيَ باهتمام الرسول ﷺ وصحابته رضي الله عنهم أجمعين بالأدب والشعر بصفة خاصة، وعرض نماذج رائعة وقـطعـاً بيانية خالـدة من كلام الـرسول ﷺ، ورفع اللثام عن خصـائص الأدب النبـوي الكـريم، ومـا يمتاز به من الشعور الرقيق، والعاطفة الفياضة، والأسلوب الجَزْل، والمنهج التربوي الحكيم، ثم تعرض لأدب الصحابة رضي الله عنهم، وأشار إلى جوانبـه البـلاغية، والنفسية، والدعوية، وبكل ذلك جاء هذا الكتاب على وجازته غنياً بالمواد البلاغية التاريخية، دافقاً بالحيوية

والقوة والرشاقة، يُشكر عليه صاحبه، ويُعترف بمجهوده وسلامة ذوقه وسعة اطلاعه، ويُقدم إلى قراء العربية والمعنيين بأدبها وتاريخها كهدية من ندوة العلماء ومن مكتب الندوة العالمية للأدب العربي ومكتبتها الوليدة الناشئة، يَحْمَدُ اللهَ على ذلك كاتب هذه السطور والمقدم لهذا الكتاب بصفته خادماً وأحد المسؤولين عن الندوتين، ندوة العلماء، والندوة العالمية للأدب الإسلامي، والمساهمين فيهما.

والحمد لله أولاً وآخراً، والصلاة والسلام على نبيه في الأولين والآخرين.

أبو الحسن علي الحسني الندوي

بومباي

يوم الأربعاء

٢٦/ذي الحجة ١٤٠٣هـ

٥ / ١٠ / ١٩٨٣م

الأدب الإسلامي وصلته بالحياة

صلة الأدب بالحياة:

الأدب يمثل الحياة ويصورها، ويعرِض على القارئ والسامع صوراً تنعكس وتبدو من مجالاتِ العيش المختلفة، ويعرض عرضاً جميلاً ومؤثراً لشتى جوانبها وأشكالها، فتبدو فيه ملامح الكون والحياة وأشكالها المتنوعة، فعندما يفوتنا النظر إلى الحياة مباشرة ننظر إليها ونشاهدها في مرآة الأدب، شريطةَ أن يجيد الأدب عمله، وتصدق من صاحبه مقدرته وتحسُن ملكته، وبذلك يصبح الأدب سبباً لتخليد أحداث الحياة وصورها، فهي تُلمس وتُشاهد ولو بعد وقوعها بزمن بعيد إذا بقيت العبارة المصورة لها، وبقي التعبير الفني الجميل عنها، وبقيت معانيها وكلماتها مفهومة مثلما كانت مفهومة في أوانها.

فبالأدب يصل الإنسان إلى فهم ظواهر الحياة وتذوق كيفياتها، وقد يكون هذا الفهم والتذوق أحسن وأقوى من فهمها

وتذوقها مباشرة بغير واسطة الأدب، ولو أن الظواهر الحقيقية هي أقرب منالاً، ومن السهل أن تُسْبرَ أغوارها بصورة مباشرة، ولكن الأدب ينوب عن ذلك منابًا كبيرًا وواسعًا إذا اختفت أو غابت الظواهر الحقيقية والوقائع العملية.

ويتسع الأدب باتساع الحياة، وتتعدد جوانبه ونواحيه كما تتعدد جوانب الحياة ونواحيها، ويستطيع به القارىء أو السامع أن يُطِلَّ على حياة البعيدين في المكان أو السالفين في الزمان مهما قَدُم تاريخهم أو بَعُدت أوطانهم.

صلة الأدب بالإسلام:

ومن أغزر اللغات أدبًا، وأطولها مدة، هي اللغة العربية وآدابها، فإن امتدادها لا يقصر من خمسة عشر قرنًا بالتواصل والتوالي، لم تنقطع هذه اللغة ولا آدابها في هذا الامتداد فترة، ولم تنسحب عن المجال الأدبي، غير أنه قد اعتورها في عهود مختلفة ضَعْف واستكانة لأسباب متغيرة وطارئة، وكان الإسلام أقوى واردٍ على اللغة العربية وعلى آدابها، ولقد تلقاه الأدب وحمله بل وتزعم به، وأصبح لِباسًا مطابقًا له، واحتمل مسؤولية عرضه وتقديمه، فقد كان رسول هذا الدين محمد بن عبد الله ﷺ -وهو الداعي الأعظم للإسلام- من أكثر أهل هذه اللغة وآدابها قوة

وإجادة، لم يكن قائلاً للشعر، ولكنه كان مجيداً لفهمه، ومتذوقاً لمحاسنه، أما النثر الأدبي فقد كان ﷺ أروع الناس جميعاً كلاماً فيه وفهماً له.

ثم إن الـــدين الإســـلامي لم يكن دينـاً قاصراً محدوداً في العبـادات وحدها حتى يقال عنه: إنه إذا سايره أدب كان أدباً منحصراً في العبادات وحدها، بل إنما الإسلام هو الدين الفريد الذي اتسع كاتساع الإنسان، وامتد كامتداد حياته، ولم يتعارض إلا مع ما يتعارض مع مصلحة الحياة الإنسانية ذاتها ومع ذوقها الجميل، وإنه إذا تعارض فيتعارض مع عمليات الهدم والإخلال بصالح الإنسان وإنسانيته.

فلم يكن للعمل الأدبي أن يجد صعوبة في منادمة الإسلام ومسايرته، ولم يكن له عائق عن أن يجد تحقيقاً لأهدافه في تصوير جوانب الحياة المتلائمة مع الإسلام.

بين الأدب الإسلامي وغير الإسلامي:

فموضع الاختلاف بين الأدب الإسلامي وغيره من أجناس الأدب هو في رعاية مصلحة الحياة الإنسانية وعدم رعايتها، حيث إن الأدب الإســلامي يرى مجالات العمـل في الكون والحياة، ويميز بين الـلائق بإنسانية الإنسان وغير اللائق بها، فهو أدب

ملتـزم في هذا المعنى، ولكنـه ملتزم بالمفيد الصالح لا بالجمود والتقليد، أما الأدب غير الإسلامي فهو لا يبالي بمجالات العمل في الكون والحياة، يدخل في كل مكان مثل البهيمة الهاملة، ترعى فيما تشاء، ولا تفرق بين الصافي والعفِنْ، والطيب والخبيث، ولا تبـالي بالفـرق بين المـراعي الفائحة والقاذورات النتنة، الأدب الإسلامي لايحب هتك العورات، ولا إثارة المزابل إلا في نطاق هادف محدود. أما الأدب غير الإسلامي فلا يبالي أين وقع، وماذا أفسد، بل إنه حينما يجرد نفسه من الالتزام يرى أحبَّ مجالات عمله كلَّ صورة مثيرة للعواطف، وكلَّ معنى يغذي النزواتِ مهما أتى به في إثْـره من فساد وانهيار، وهذا هو موضع الخلاف بين الأدب الإسـلامي والأدب غير الإسـلامي، الأدب الإسـلامي يتلقى روحـه وهـدايته من الإسلام، ومن حياة نبي الإسلام، والأدب غير الإسلامي يتلقى روحه وإرشاده من هوى الإنسان، وحياة كل هائم من الحيوان، وليس صحيحـاً أن الأدب بعـد التزامه بالإسلام يصبح محدوداً وقاصراً، لأننا حينما نشطب جانب الفساد والقبح من الحياة فالذي يبقى بعده في الأدب هو واسع وكثـير ومتنـوع الجـوانب ومختَلِف الصـور والأشكـال، ولن يشعـرالمـمارس له والمستفيد به أي قصور فيه لقضاء حاجته من الأدب، بل إن مايجده يخدُمه في كل ما يعينه في حياته.

سعة الأدب الإسلامي :

فقد اشتمل الأدب الإسلامي على الشعور بالألم والسرور، وعلى السُّخْط والرضا، وعلى الغضب واللطف، وعلى البكاء والضَّحِك، وعلى الكراهية والحب، وعلى الجِدِّ والمزاح، وعلى الشقاء واللذة، وعلى العقل والوُجدان، وعلى الحكمة واللعب، وهو يصور سلوك الصديق مع الصديق، وسلوك الرجل مع المرأة، ويصور انفعال الرجل في الأحداث، وشعوره بالعواطف، وتأثره بكل مؤثر، واستجابته لكل ظاهرة مسترعية للانتباه، وهو يشتمل على التاريخ والسيرة، وعلى القصة والرسالة، وعلى الخُطبة والحوار، وعلى الوصف والتصوير، وعلى التعبير المؤثر الجميل، وهو نثر سَلِسٌ، وشعر رائع، وصور زاهية للأسلوب الأدبي، وهو تقريع وعتاب، وتطريب وإمتاع، وبيان وإفهام، إنه مرآة كلامية للحياة الإنسانية في أحوالها النفسية وأحوالها الكونية، غير أنه يتجنب في كل ذلك القذارة والفساد، وذلك لأن الإسلام ليس ديناً بالمعنى الذي راج وعم في الديانات الأخرى في العالم، حيث لا يتسع الدين في نظرها اتساعَ الحياة، وتدُل على صحة ما قلت سنة الرسول عليه الصلاة والسلام، فقد عمت على جوانب الحياة كلها، ففيها شؤون وشجون ذات اتصال بالأحوال الفردية، وبعلاقة الرجل مع زوجه، والصديق مع صديقه والمواطن بجاره

المواطن، وصلة الخصم بخصمه، والعدو مع عدوه، وفيها الحديث عن النفس وعن المجتمع وعن الحياة، وهذه كلها خامات الأدب الإنساني البليغ.

وحيث إن الدين الإسلامي يشتمل على كل ذلك، فالحديث البليغ عن كل ذلك يستحق أن يدعى أدباً، بل وأدباً عظيماً، وأن ينظر إليها بتقدير واستفادة، وهو لكونه تعبيراً عن ظواهر الحياة الإسلامية أو مصطبغاً بالصبغة الإسلامية يستحق أن يسمى أدباً إسلامياً، لأنه أدب يمثل الحياة الإسلامية، أو أدب إسلامي يمثل الحياة.

الفارق بين المفهوم الإسلامي للأدب وبين غيره:

ويمكن معرفة الفارق بين النظرة الإسلامية والنظرة الجاهلية إلى الحياة، وسريانهما في الأدب، ودلالتهما على اختلاف الأدب الإسلامي عن غير الأدب الإسلامي، بحيث تتبين به ملامح كلا الأدبين وفكرتاهما، من الكلمة السائرة في عرب الجاهلية «انصرُ أخاك ظالماً كان أو مظلوماً»، فقد كان مفهومها الجاهلي نصرة الأخ بدون النظر إلى صواب عمله أو خطئه، ونعى رسول الله ﷺ على هذا المفهوم الفاسد، ونهى عن استخدامه، وأرشد إلى المفهوم الإسلامي عوضاً عن هذا المفهوم، وهو نصرة الرجل على أساس

الحق لا على أساس القرابة والنسب، وقام بتربية النفوس المسلمة على هذا النظر الإسلامي، فتربوا عليه، وأصبحت الأولية في نظرهم للعدالة والحق، وإذا بالرسول ﷺ يتكلم نفسه بهذه الجملة: «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً» فيتعجب صحابته على هذا التعبير، ويستفسرونه عن مراده، فيشرحه رسول الله ﷺ بأن نصرة الظالم هو منعه من الظلم[1]، فدخل بذلك على الفِقْرة السابقة مفهوم جديد، وحل محل المفهوم القديم، وأصبح للفقرة مفهومان، مفهوم إسلامي ومفهوم جاهلي.

وإذا بحثنا في استعمال رسول الله ﷺ لهذه الفقرة نفسها وعدم استبدال غيرها بها، فنجد فيه مقاصد لكل منها أهمية وقيمة:

أحدها: التعليم، لأن استعماله لجملة ممنوعة غير حاملة لمعنى طيب في أذهان السامعين يسترعي انتباهاً شديداً، لأنه كان من لسان الرسول الكريم الذي: ﴿وما يَنْطِقُ عن الهوى إن هُو إلا وحيٌ يُوحى﴾ وهذا الانتباه نفسه كان يضمن نفوذ المفهوم الجديد للفقرة في نفوس السامعين.

والمقصد الثاني: هو التأثير، لأن التكلم بجملة فيها تأثير فني لكثرة ما استعملت في مفهوم ذي علاقة بالعاطفة والنفس، وهي

---

(١) انظر صحيح البخاري باب أعن أخاك مظلوماً أو ظالما.

العصبية القبلية الجـاهلية يثير في النفس انجذاباً وولعاً به، وبه يحصُل تأثير قوي.

والمقصـــد الثـالث: هو تركيز المفهـوم الجـديد في نفـوس المسلمين، وهو مفهوم الأخوة الإسلامية التي سعى رسول الله ﷺ لإحلالها محل الأخوة القبلية التي سادت النفوس زمناً طويلاً.

ومثال آخر يدل على الشخصية الإسلامية للأدب في الحياة هو بيت لشاعر مخضرم معروف، وهو النابغة الجَعْدي، حيث قال:

بَلَغْنا السَّماءَ مجدُنا وجُدودُنا وإنَّا لنرجُو فوقَ ذلك مَظْهراً

فلما سمع ذلك رسول الله ﷺ، تغير وجهه الكريم، وسأل: «إلى أين يا أبا ليلى؟» فقال الشاعر: إلى الجنة يا رسول الله، وبذلك طابت نفس رسول الله ﷺ(١)، لأنه عَرَفَ من شرح الشاعر لشعره أن المفهوم ليس كما يبدو من ظاهر النص بأن يكون جَراءة مع الذات الإلهية، بل إنه مفهوم التقرب إليه، وطلب مثوبته وجنته، فبيتٌ واحد من الشعر كان يَدْخُل في حيِّز الإلحاد والكفر إذا وجدنا تفسيره تفسيراً مغايراً للحق والإسلام، ولكنه يصير بيتاً من الشعر الإسلامي عندما يتفق مفهومه مع النظر الإسلامي.

---

(١) خزانة الأدب للبغدادي ج ٣.

لقد ظهر هذا الاتجاه الأدبي السليم الملتزم لأول مرة في كلام رسـول الله ﷺ، واشتمـل على أصناف وأنواع أدبية مختلفة من الكـلام الأدبي، وقلده واتبعه فيه صحابته رضي الله عنهم، ثم الذين أتَوْا من بعدهم من أتباعهم، بل وطوروا البيان الأدبي وفقه ونـوعـوه، ملتزمين فيه، ومحتفظين بالسمة السليمة المقتَبسه من المنهـج القـرآني للبيان الأدبي، ومن بيان الرسول عليه السلام، فوُجد بذلك في موضع كل لون من الأدب الجاهلي لون من الأدب الإسـلامي، الخـطب في موضـع الخـطب، والعهود والعقود في موضـع العهـود والعقـود، والحكـم والأمثـال في موضـع الحكـم والأمثال إذا كانت منطوية على فساد.

النظرة الإسلامية إلى الأدب الجاهلي:

أما إذا لم يكن فيها في عهدها الجاهلي فساد وانحراف، فأبقى عليه الإسلام، ولم يعامله معاملة النفي والشطب، بل إن نظرة الإسلام إلى مثله كانت كنظرته إلى الناس فيهم خيار وشرار، فقد قال رسول الله ﷺ: «الناس معادنُ كمعادنِ الذهبِ والفضةِ، خيارُهم في الجاهلية خيارُهم في الإسلام إذا فَقُهوا[1]».

---

(١) صحيح مسلم.

ولذلك نجد عند الصحابة رضي الله عنهم اعتناءاً بالشعر الجاهلي ليستعينوا به في تفهم معاني ألفاظ القرآن، فقد استفادوا به في مختلف حاجاتهم، وقضَوْا به لُبانات لنفوسهم الملتزمة، ويشهد بذلك ماروي عن سيدنا عمر بن الخطاب أنه اجتمع ببعض أولاد هرِم بن سنان ممدوح شاعر الجاهلية الكبير زُهير بن أبي سلمى، فاستنشد سيدنا عمر بن الخطاب بعضَ مدائح زهير في مدح أبيهم، فأنشده، فعلق عليه سيدنا عمر بقوله: إن كان لَيُحسنُ فيكم القولَ. قال: ونحن والله إن كنا لَنُحْسنُ له العطاء. فقال: قد ذهب ما أعطيتموه وبقي ما أعطاكم[1].

فهذا يدل على أن الإسلام لم يشطب الأدب الجاهلي كله، بل إنما شطب الأدب الكاذب والمنافق والفاسد منه.

ومنذ أن تقرر للشعر والأدب حدود إسلامية نابعة من القرآن والسنة وأدب الصحابة بقي الأدب يؤدي دوراً ملتزماً، متقيداً بتلك الحدود والقيود.

الأدب الإسلامي أدب البناء:

فالإسلام لم يعارض الأدب، ولم يتخلَّ عن مجال من مجالاته

---

(١) مختار الأغاني لابن منظور ج ٥.

الكثيرة إلا في حدود التزامه بالحق والنزاهة، ونفيه للانحراف والعدوان، وبه يتعين المفهوم الإسلامي للأدب، وتتبين صلاحيته لتمثيل الحياة، ويتبين أيضاً أن الأدب المشتمل على هذا المفهوم لا يعجَز عن التعبير عن أي جانب من جوانب الحياة، ولا عن تأدية رسالة الأدب الموكولة إليه، غير أن ميزة الأدب الإسلامي هي خدمة الحياة بالبناء والإصلاح حينما نجد ميزة الأدب الجاهلي تحقيق مآرب الحياة التائهة ومساعدتها بكل وسائل العربدة والاختباط، وذلك لأن الإسلام لا يرضى بالحرية التي تكون متعة ولذة لواحد وهتكاً واعتداءً على الآخر، أو إفساداً وهدماً لسلامة الإنسانية وخيرها.

الأدب الإسلامي قسمان:

والأدب الإسلامي ينقسم بصلته إلى الحياة إلى قسمين :- قسم يؤدي دور نشر الوعي الإسلامي وتبليغ الدعوة والفكر الإسلامي، ويشتمل على الابتهالات والدعوات، وقسم آخر يتصل بالحياة الإسلامية العامة، ويخدم جانباً من جوانبها، هذا القسم الثاني يحمل حيناً شعاراً إسلامياً واضحاً، وقد يخلو من شعار واضح منه، ولكنه يخضع للإسلام بالتزامه بالإطار المسموح للأدب من الإسلام.

١) أدب الدعوة والدين:

فالقسم الأول من الأدب الإسلامي إنما يوجد في مجالات الدعوة، والتوعية الإسلامية، ونصوص الابتهالات، والدعاء، وفي التعبير عن الكلمة الإسلامية، وهذا القسم واضح المعالم، وبين الملامح في إسلاميته، وله أمثلة كثيرة في كلام الدعاة والصالحين.

٢) الأدب العام:

أما القسم الثاني فربما يشك في أمره ويظن أنه ليس من الإسلام، لأنه لا يحمل دائماً شعاراً إسلامياً، ولكنه يدخل في الإطار الإسلامي ما دام يكون خالياً مما نهى الله ورسوله عنه، فقد رضي الرسول عليه السلام بهذا القسم من الأدب، فإنه استمع إلى شعر الأدب الجاهلي، ونثر العهد الجاهلي، بدون أن ينعى عليه، وَيدلُّ على ذلك قبوله لشعر كعب بن زهير، وإعطاءه جائزة عليه، وتحدثه بحديث أم زرع، وقوله بعده لأمِّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها: أنا لك كأبي زرع لأم زرع[١].

وكان ذلك لكون هذه النصوص الأدبية غير خارجة من الحدود المسموحة للأدب، وكلّما خرجت نصوص أدبية من هذه

---

(١) جامع الترمذي كتاب الشمائل.

الحدود المرسومة استدركوها، وحكموا عليها بحكم الإسلام، كما ظهر من سيدنا عمر بن الخطاب نفسه لما ثبت لديه أن الحطيئة أساء إلى سمعة الصحابيّ الجليل الزبرقان بن بدر بهجائه له، ولم يكن يجوز له ذلك، لأن الزبرقان بن بدر لم يظلمه، ولم يبخس حقه، ولا أساء إليه، بل إنما كان أمره أن قِراه للشاعر لم يبلغ مبلغ رضاه، ورغبته، وكان الحطيئة يقوم بمثل هذه الإساءة إلى كرامة الناس بصورة عامة، ومتكررة، فعاقبه سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه معاقبة صدَّت شره من وصوله إلى الناس، ثم أطلق سراحه بعد فترة من الزمن، بعد توبته من قول السوء[1]، وشهد بذلك أيضاً ما وقع بين الشاعر الكبير جرير والخليفة المسلم سيدنا عمر بن عبد العزيز.

فالقسم الثاني من الأدب الإسلامي قد يشتبه أمره في نظر بعض الناس، لعدم وضوح حاله وخضوعه الملموس للإسلام، فإنما ينظر إليه من ناحية التزامه بالإطار الإسلامي، ويقبل على أساس تقيده بالقيود المرسومة، ويشطب على أساس انحرافه عن ذلك، وهذا الشطب إنما يكون في صالح المجتمع الإسلامي، وصالح الفرد المسلم، بل وفي صالح الإنسانية كذلك، لأن القيود المرسومة للأدب عند الإسلام هي قيود صلاح وبناء للإنسانية

---

(١) انظر مختار الأغاني ج ١.

جمعاء، فإن الإسلام لا يعارض إلا الفاسد والمفسد، ويستحسن الحسن منه ويقويه، ويقبح القبيح منه ويوهيه.

تقدير رسول الله ﷺ للأدب النزيه:

ولقد مثل كلام رسول الله ﷺ هذا الأدب النزيه البناء واشتمل على أصناف وألوان منه، وكان أبلغ الناس وأملكهم للبيان والفصاحة، فقد ولد في قريش، ورضع في بني سعد، وهما قبيلتان من أفصح القبائل العربية، وكان يشارك أصحابه في محادثاتهم، ويسمع منهم فقد روي عن جابر بن سَمُرة رضي الله عنه، قال: جالست رسول الله ﷺ أكثر من مئة مرة، فكان أصحابه يتناشدون الشعر، ويتذاكرون أشياء من أمر الجاهلية، وهو ساكت وربما تبسم معهم. ويقول الشريد: استنشدني نبي الله شعر أمية بن أبي الصلت فأنشدته[1].

فلم يزهد رسول الله ﷺ في الاستماع إلى الشعر، ولا إلى أحاديث الناس العامة، وهي التي تشتمل بوجه عام على مواد أدبية مختلفة من أحوال نفسية وشعورية وسلوكية، وأحداث مؤثرة وغير مؤثرة، وكان ﷺ يسمع محادثات أصحابه، ويستحسن

---

(١) الأدب المفرد للبخاري ص ١٢٧.

الحسن منهـا ويقويه، ويقبح القبيح منها ويوهيه، كما ذكر ذلك صحابته في صفته.

أدب الرسول ﷺ

خصائص كلام رسول الله ﷺ :

واشتمل كلامه ﷺ نفسه على المعاني الأدبية المختلفة، وعلى عرض جوانب الحياة والتعرض لها بجمل تعبيرية مؤثرة، وكلام يعبر عن معنى شعور رقيق بضرب الأمثال حيناً، وبالتمثيل الرائع حيناً آخر، وبمنهج قصصي حيناً، وبالحوار حيناً آخر، وكان يؤثر سهولة الكلام حين تقتضي الحال السهولة، ويختار الجزالة حين يستدعي الأمر الجزالة، ويبسط الكلام حيناً فيصبح سهلاً سلساً سائغاً، ويوجزه حيناً، فيصبح جوامع الكلم وكلاماً معجزاً.

الشعور الرقيق في كلامه ﷺ :

ومن أمثلة ذلـك اختياره ﷺ لاستعارة القوارير للنساء في سياق أمره ﷺ باختيار الرفق معهن فقد قال: رفقاً بالقوارير، يأمر بذلك اختيار الرفق والحيطة في معاملة النساء، فإنهن ضعيفات،

وذوات حساسيات يقبلن تأثير العنف مثل الزجاج، ومن كلامه ﷺ قوله: ياخيل الله اركبي، فإن نسبة الخيل إلى الله نسبة تعليق النفس المسلمة بالصلة إلى ربها، وذكر الخيل للرجل العربي مثل ذكر أمر محبوب ممتع، ثم تقديم خيل الله على «اركبي» فيه مزيد من الرقة واللطف بسبب تأخير جزء الأمر على جزء الوصف، ومن ذلك قوله: لاينتطح فيه عنزان، وكذلك قوله: هدنة، على دخن، وغيرها من الجمل الأدبية الرائقة.

جزالة الأسلوب في كلامه ﷺ :

واشتمل كلامه ﷺ على كلام جزل بديع فيه كلمات ذات نغمة وتأثير ومثاله قوله ﷺ :

«أمرني ربي بتسع أوصيكم بها، بالإخلاص في السر والعلن، والعدل في الرضا والغضب والقصد في الغنى والفقر، وأن أعفو عمن ظلمني، وأعطي من حرمني، وأصل من قطعني وأن يكون صمتي فكراً، ونطقي ذكراً، ونظري عبراً».

العاطفة الإنسانية والحب في كلامه ﷺ :

وتجلّت في كلامه ﷺ العاطفة الإنسانية الرقيقة، وقد عبرّ عنها بكلام بليغ مؤثر، ومثال ذلك أنه قال عن جبل أحد: هذا جبل يحبنا ونحبه، وهو على باب من أبواب الجنة، وفي رواية:

هذه طابة وهذا جبل يحبنا ونحبه[1].

ومنه ما رواه جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: إذا ذكر أصحاب أحد: أما والله لوددت أني غودرت مع أصحابي بحضن الجبل[2]

ومنه قوله عن رفيقه الحبيب سيدنا أبي بكر رضي الله عنه كما روى في حديث جاء فيه لما خطب رسول الله ﷺ وهو في وجعه الذي توفي به، وقال في خطبته «إن عبداً من عباد الله خيره الله بين الدنيا وبين ما عنده فاختار ما عند الله» وكان ﷺ يلمح بذلك إلى دنو وفاته وإلى استجابته لدعوة ربه، وفهم أبو بكر رضي الله عنه معنى هذه الكلمة فبكى: قال له رسول الله ﷺ:

على رسلك ياأبا بكر، إنه ليس من الناس أحد أمن على نفسه وماله من أبي بكر، ولو كنت متخذاً من الناس خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكن خلة الإسلام أفضل، وقال: سدوا عني كل خوخة في المسجد غير خوخة أبي بكر[3].

ولذلك لمَّا بلغه بكاء الأنصار على انقطاع مجالسه لمرضه،

---

(١) صحيح البخاري كتاب المغازي قصة تبوك.
(٢) أحمد ، ابن كثير ج ٣ ص ٨٩.
(٣) صحيح البخاري فضائل أصحاب النبي ﷺ.

خرج ﷺ فحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال: أوصيكم بالأنصار، فإنهم كرشي وعيبتي، وقد قضوا الذي عليهم وبقي الذي لهم، فاقبلوا من محسنهم وتجاوزوا عن مسيئهم[1].

أما مثال ما ظهر من حبه لأقاربه وأهله، فهو الذي ظهر في غزوة خيبر كما روي حديث يقول: قدم على رسول الله ﷺ ابن عمه جعفر بن أبي طالب وأصحابه ففرح به رسول الله ﷺ وتلقاه بالبشر، وقَبَّل جبهته، وقال والله ما أدري بأيهما أفرح، بفتح خيبر أم بقدوم جعفر؟[2].

ومنه كلامه المعبِّر عن عاطفة حزنه، وتألمه، ومثاله قوله على وفاة ابنه إبراهيم: «تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول إلا ما يرضي الرب، وإنا على فراقك ياإبراهيم لمحزونون»[3].

وهناك أحاديث تشتمل على نصوص مصورة بعاطفة حبه ورقته ورحمته، مثل حبه لبنته فاطمة رضي الله عنها، وإبداء وده لزوجته الأثيرة عائشة رضي الله عنها، وتذكره لزوجته الأولى التي

---

(١) صحيح البخاري مناقب الأنصار.

(٢) زاد المعاد ج ١ ص ٣٩٧.

(٣) انظر صحيح البخاري.

ناصرته عند بدأ الوحي وهي خديجة رضي الله عنها بكلمات رقيقة[1].

الرحمة في كلامه ﷺ :

أما عاطفة الرقة والرحمة حتى مع الحيوان فمثال ظهورها في كلامه.

قوله ﷺ : «إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القِتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذِّبْحة، وليُحِدَّ أحدكم شفرته، ويُرِحْ ذبيحته»[2].

وقوله عليه السلام : «الراحمونَ يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحَمْكُم من في السماء»[3].

ومنه ما جاء في حديث له قدسي، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال:

«إن الله عز وجل يقول يوم القيامة ياابن آدم مرضت فلم تعدني! قال: يارب كيف أعودك وأنت رب العالمين!؟ قال: أما

(١) انظر صحيح البخاري.
(٢) رواه مسلم في باب الأمر بإحسان الذبح كتاب الذبائح.
(٣) رواه أبو داوود.

علمت أن عبدي فلان مرض فلم تعده، أما علمت أنك لو عُدْتَه لوجدتني عنده، ياابن آدم استطعمتك فلم تطعمني، قال: يارب كيف أطعمك وأنت رب العالمين!؟ قال: أما علمت أنه استطعمك عبدي فلان فلم تطعمه، أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي، ياابن آدم استقيتك فلم تسقني، قال: يارب كيف أسقيك وأنت رب العالمين!؟ قال: استقاك عبدي فلان فلم تسقه، أما علمت لو سقيته لوجدت ذلك عندي»[1].

التشبيهات والتمثيلات في كلامه ﷺ:

ولقد كثرت في كلامه ﷺ التشبيهات البليغة، والتمثيلات الرائقة، وقد اعتمد في عدد من هذه التمثيلات على الظواهر الطبيعية الملموسة المشهودة لدى الناس.

فقد ساق مثالاً للرجل المسلم، وهو رجل يتحلّى بكريم الخصال وصالح الطِّباع بطريقة سؤال أولاً: ثم بتشبيهه بأنفع وأطيب شجرة لدى العرب.

عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من شجرة لايسقط ورقها، وإنها مثل المؤمن فحدثوني ما هي؟ فوقع الناس

---

(١) رواه مسلم.

في شجـر البوادي، قال عبد الله: ووقع في نفسي أنها النخلة، فاستحييت ثم قالوا: حدثنا ما هي يارسول الله قال: هي النخلة»[١].

كان العـرب يعـرفـون جوانب الخير، والنفعية، في شجرة النخل معرفة دقيقة، وشاملة، فكان تشبيه رجل بها ضامناً لمعرفة خصال هذا الرجل معرفة دقيقة وشاملة، فكانت هذه الطريقة في التعبير، وفي استرعاء الانتباه، وطريقة السؤال، وصرف أذهان السامعين، إلى السعي في طلب الجواب طريقة مؤثرة، وبالغة، في الوصول الأدبي إلى الغرض المنشود من الكلام.

وهناك مثال لضربه كمثل لبيان أهمية الدعوة إلى الخير ومنع أهل الشر من تنفيذ شرهم، فإنهم إن قاموا بتنفيذ شرهم فذلك لايضرهم وحدهم، بل إنما يضر الجميع، لأن الجميع يعيشون معـاً، ويشـتركون في المنافع والمضار معاً، فقد ضرب ﷺ مثلاً لذلك من سفينة البحر التي يصبح ركابها مجتمعاً واحداً مع تَبَايُنْ أوطانهم وأحبابهم، يقول الحديث:

عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «مثل القائم في حدود الله، والواقع فيها، كمثل قوم استهمّوا على

---

(١) البخاري كتاب العلم.

سفينة، فصار بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، وكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء، مرُّوا على من فوقهم، فقالوا: لو خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا، فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نَجُوَا ونَجَوا جميعاً»[1].

وهناك نصوص أخرى لرسول الله ﷺ ذات اتصال بجوانب الحياة المتنوعة على حسب اختصاصاته، وسيرته السمحة، وكلها تؤدي عملها بأحسن أسلوب وأقوى تأثير.

المنهج التربوي في كلامه ﷺ:

ومن أمثلة ذلك، خطبته في منى في حجة الوداع وهي تدل على اهتمامه بالتفهيم، وإحلال المعنى في أعماق القلب بوسائل مؤثرة للكلام، من تكرير النداء، والتأكيد على الجوانب المهمة من المعاني، وإيثار السهولة والسلاسة، فقد خطب وكان من آخر خطبه في حياته، وكان يريد ترسيخ معانيها في الأذهان لتكون كلمة باقية بعده فقد قال:

«أيها الناس! اسمعوا من قولي واعقلوه، فإني لا أدري لعلي لاألقاكم بعد عامي هذا، أيها الناس! أي شهر هذا؟ فسكتوا،

---

(١) رواه البخاري.

فقـال: هذا شهـر حرام، وأي بلد هذا؟ فسكتوا، فقال: بلد حرام، وأي يوم هذا؟ فسكتوا، قال: يوم حرام، ثم قال: إن الله قد حرَّم دماءكم وأموالكم وأعراضكم كحرمة شهركم هذا، في يومكم هذا إلى أن تَلْقَـوا ربكم، ألا هل بَلَّغتْ؟ قال الناس: نعم! قال: اللّهم اشهد! ألا ومن كانت عنده أمانة فليؤدِّها إلى من ائتمنه عليها، ألا وإن كل رباً في الجاهلية موضوع، وإن كل دم في الجاهلية موضوع، ألا هل بلغت؟ قالوا: اللّهم نعم! قال: اللّهم اشهد، فليبلغ الشاهد الغائب، ألا إن كل مسلم محرم على كل مسلم: ولا يحل مال امريء مسلم إلا ما أعطى عن طيب نفس، إلى أن قال: إن كلَّ مسلم أخو المسلم، وإنما المسلمون أخوة، ولا يحل لامرىء مسلم دم أخيه ولا ماله، إلاّ بطيب نفس منه، وإنما أُمرت أن أُقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالـوا عصمـوا مني دمـاءهم وأموالهم، وحسابهم على الله، ولا تظلموا أنفسكم ولا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض، إني قد تركت فيكم ما لاتضلون به، كتاب الله، ألا هل بلغت؟ قال الناس: نعم، قال: اللّهم اشهد!(1)».

الأسلوب الوصفي الهادف في كلامه ﷺ :

وفيما يلي نص من كلامه ﷺ اشتمل على الأسلوب القصصي

(1) صحيح البخاري وسيرة ابن هشام (باختصار)

فيه، حوار ووصف، وتصوير المشهد.

كان ثلاثة من بني إسرائيل، أبرص، وأقرع، وأعمى، فأراد الله أن يبتليهم، فبعث إليهم ملكاً، فأتى الأبرص فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: لون حسن وجلد حسن، ويذهب عني الذي قد قذرني الناس، فمسحه فذهب عنه قذره، وأعطي لوناً حسناً وجلداً حسناً، قال: فأي المال أحب إليك؟ قال: الابل.

فأعطي ناقة عشراء، فقال بارك الله لك فيها، فأتى الأقرع، فقال، أي شيء أحب إليك؟ قال شعر حسن، ويذهب عني هذا الذي قذرني الناس، فمسحه فذهب عنه، وأعطي شعراً حسناً، قال: فأي المال أحبُّ إليك؟ قال: البقر، فأعطي بقرة حاملاً، فقال: بارك الله لك فيها، فأتى الأعمى، فقال: أي شيء أحبُّ إليك؟ قال: أن يَرُدَّ الله إلي بصري، فأبصر به الناس، فمسحه فردَّ الله إليه بصره، قال: فأي المال أحبُّ إليك؟ قال: الغنم، فأعطي شاة والداً، فأنتج هذان وولد هذا، قال، فكان لهذا واد من الإبل، ولهذا واد من البقر، ولهذا واد من الغنم، ثم إنه أتى الأبرص في صورته وهيئته، فقال: رجل مسكين، قد انقطعت بي الحبال في سفري، فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك؟ فأسألك بالذي أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن، والمال بعيراً، أتبلَّغ عليه في سفري، فقال: الحقوق كثيرة، فقال له: كأني أعرفك، ألم تكن أبرص يقذرك الناس، فقيراً فأعطاك الله فقال: إنما ورثت

هذا المال كابراً عن كابر، فقال: إن كنت كاذباً فصيرك الله إلى ما كنت، وأتى الأقرع في صورته، فقال: له مثل ما قال لهذا، وردَّ عليه مثل ما ردَّ على هذا، وقال إن كنت كاذباً فصيرك الله إلى ما كنت، وأتى الأعمى في صورته وهيئته، فقال: رجل مسكين وابن سبيل، انقطعت بي الحبال في سفري، فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك، أسـألـك بالذي ردَّ عليك بصرك، شاة، أتبلغ بها في سفري فقال: قد كنت أعمى فردَّ الله إلي بصري، فخذ ما شئت ودَعْ ما شئت، فو الله لا أجهـدك اليوم شيئـاً أخذته لله، فقال أمسك ما لك، فإنما ابتليتم فقد رضي عنك وسخط على صاحبيك(١).

تمثيل كلامه ﷺ للمنصب النبوي والعاطفة البشرية:

وفي أدب الـرسـول عليه السـلام نماذج أخـرى مما يتصل بجـوانب الحياة المتنـوعة فقد كان رسولاً وبشراً يأتي إليه الوحي فيكـون مصـدراً للمعلومات الدينية، والتوجيهات الإسلامية، وتساوره الأحوال البشرية، وتمر عليه الظروف الدنيوية فيشعر بها كما يشعـر كل إنسان، ويتفاعل معها كإنسان، ويظهر ذلك في كلامه، فكانت حياة الرسول عليه السلام ذات جانبين، جانب

---

(١) البخاري ومسلم.

ديني وجـانب دنيوي، كانت التعليمات الـدينية مصدر الجانب الأول وكانت التجربة الإنسانية والشعور الإنساني العام مصدر الجانب الثاني.

العاطفة الفياضة في كلامه ﷺ :

ولـذلـك وجـدنا فيما مر من نصوص الرسول عليه السلام الأدبية القصيرة منها والضافية، أنه كان يسر بما يسر به أي إنسان كما ظهر عند قدوم ابن عمه الحبيب جعفر بن أبي طالب، وكان يحزن كما يحزن أي إنسـان كما ظهـر منـه عنـد وفاة ابنه سيدنا إبراهيم، حيث قال: «تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول إلا ما يرضي الرب، إنا على فراقك ياإبراهيم لمحزونون»(١).

وكـانت مشـاعـر أصـدقـائه، ومحبيه تثير في نفسه الاهتمام والعمـل بما يناسب ذلك المقام، كما يتجلىّ ذلك من النصوص المذكورة في أحاديثه ﷺ، ومنها خطبته في الأنصار عند قفوله من غزوة حنين، فقد اشتملت على العتاب، والاستعطاف جميعاً، بأسلوب مؤثـر جميل، وكانت العواطف تتحرك في نفسه حسب الـظروف والأحـوال، كما نجد مثال ذلك في دعائه في الطائف عندما أصابه حزن وألم شديدان.

---

(١) البخاري.

وفي دعائه في عرفات الذي يتجلى بأقوى مايتجلى به كلامه من عاطفة التواضع، والانكسار، والرجاء المخلص من ربه سبحانه وتعالى.

فنصوص الرسول عليه السلام من أقوى النماذج الأدبية المتصلة بجوانب الحياة الفاضلة، وهي الأسوة الكبرى للأدب الإنساني النبيل، أما الأدب الإنساني غير النبيل فلا يقبله الإسلام وليست له أسوة في أدب الرسول عليه السلام ولا يكون أدباً إسلامياً.

أدب صحابته ﷺ نثراً

ولقد تربَّى على نصوص الرسول ﷺ صحابته، ثم من أتى بعدهم من أتباعهم، وذلك مع تلقيهم للتربية من القرآن الكريم فكان بذلك لهم أدب جم، ونصوص بليغة، تمثّل جوانب الحياة الإنسانية، والإسلامية المختلفة، يمكن اقتباسها من بطون الكتب وهي تدل أيضاً على تنوع مجالات الأدب الإسلامي وعلى جامعيته واتصاله بالحياة، أكتفي منها هنا بنماذج من أدب الصحابة رضي الله عنهم.

التعبير عن الألم وبيان المصيبة :

منها انطباعاتِ غم وعزاء، جاءت على لسان الخليفة الأول سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه، يقول الراوي دخل أبو بكر الصديق رضي الله عنه على النبي عليه الصلاة والسلام وهو مسجى بثوب فكشف عنه الثوب وقال:

(بأبي أنت وأمي! طبت حياً، وطبت ميتاً، فعظمت عن الصفة وجللت عن البكاء، وخصصت حتى صرت مسلاة، وعممت حتى صرنا فيك سواء، ولولا أن موتك كان اختياراً منك لجدنا لموتك بالنفوس، ولولا أنك نهيت عن البلاء لأنفدنا عليك ماء الشؤون، فأما مانستطيع نفيه عنا، فكمد وإدناف، يتخالفان ولا يبرحان، اللّهم فأبلغه عنا السلام، اذكرنا يامحمد عند ربك ولنكن من بالك، فلولا ماخلفت من السكينة لم نقم لما خلفت من الوحشة، اللّهم أبلغ نبيك عنا واحفظه فينا)[1].

ثم خرج إلى الناس وهم في شديد غمراتهم وعظيم سكراتهم فخطب خطبة.

لقد كانت وفاة الرسول عليه السلام أعنف صدمة نفسية

---

(١) زهر الأدب ومختارات.

وأشدها إيلاماً للصحابة رضي الله عنهم فكان لها أن تؤثر وتنشىء آثاراً أليمة على نفوسهم، والنص الذي قدمته كان لأقرب الناس تأثراً بهذه الصدمة ولكنه كان أوقر المسلمين وأشدهم اتباعاً لأسوة الرسول ﷺ فتجلَّت في كلامه صورتان صورة الشعور بالصدمة المؤلمة، وصورة الصبر والاحتمال.

تعليمات قضائية:

ومنها توجيه الخليفة الثاني سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه لقاضية، وإرشاده إياه إلى المنهج السليم في القضاء، وذلك بأسلوب بليغ موجز:

(بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى عبد الله بن قيس، سلام عليك! أما بعد! فإن القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة، فافهم إذا أُدلي إليك فإنه لاينفع تكلُّم بحق لانفاذ له، آس بين الناس في مجلسك ووجهك، حتى لايطمع شريف في حيفك، ولا يخاف ضعيف من عدلك، البيِّنة على من ادَّعى، واليمين على من أنكر، والصلح جائز بين المسلمين، إلا صلحاً حرَّم حلالاً أو أحلَّ حراماً، ولا يمنعك قضاء قضيته اليوم فراجعت فيه نفسك، وهديت فيه لرشدك أن ترجع عنه، فإن الحق قديم، ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل، الفهم الفهم عند ماتلجلج في صدرك مما ليس يبلغك في كتاب الله، ولا

سنة النبي ﷺ! اعرف الأمثال والأشباه وقس الأمور عند ذلك ثم اعمد إلى أحبها إلى الله وأشبهها بالحق فيما ترى، واجعل للمدعي حقـاً غائباً أو بيّنة أمداً ينتهي إليه، فإن أحضر بينته أخذت له بحقه وإلا وجهت عليه القضاء، فإنه أنفى للشك وأجلى للعمى وأبلغ في العذر، المسلمون عدول بعضهم على بعض، إلا مجلوداً في حد، أو مجرباً عليه شهادة زور أو ظنيناً في ولاء أو قرابة، فإن الله قد تولى عنكم السرائر، ودرأ منكم بالشبهات، وإياك والقلق والضجر، والتأذّي بالناس، والتنكر للخصوم في مواطن الحق التي يوجب الله به الأجر، ويحسن به الذخر، فإنه من يخلص نيته فيما بينـه وبين الله تبارك وتعالى ولو على نفسه يكفه الله مابينه وبين الناس، ومن تزين للناس بما يعلم الله خلافه هتك الله ستره، وأبدى فعله، والسلام عليك)[1].

يظهر من هذا النص امتلاك سيدنا عمر رضي الله عنه ناصية البـلاغة، فقد راعى لطبيعة الموضوع العلمية فجاء له بعبارات موجزة جامعة، ولكن بكلمات ناصعة، فصيحة، تستهدف الغاية بكل دقة وأمانة.

وصف للتضايق النفسي والسرور:

وفيما يلي قطعتان من نصوص الصحابة رضي الله عنهم نجد

---

[1] البيان والتبين (مختارات).

فيهما أقوى ما نجده في الأدب من تصوير للمشاعر، فهما تزخران بعاطفة التضايق والألم، ثم تنكشف الغمة فيأتي عاطفة الابتهاج، والارتياح، أما القطعة الأولى فهي من كلام أم المؤمنين سيدتنا عائشة رضي الله عنها حينما ذكر عنها بعض الناس ما يسيء إلى عرضها وكرامتها على شبهة لم يكن لها أساس قوي، ثم ينزل الله سبحانه وتعالى براءتها، فهي تحدث عن شأن هذه الظاهرة بعد ما ذكرت تفصيلاً سبق ذلك، قالت:

(فبكيت يومي ذلك كله لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم، قالت: وأصبح أبواي عندي وقد بكيت ليلتين ويوماً لا أكتحل بنوم ولا يرقأ لي دمع حتى إني لأظن أن البكاء فالق كبدي، فبينا أبواي جالسان عندي وأنا أبكي فاستأذنت علي امرأة من الأنصار فأذنت لها فجلست تبكي معي.

قالت: فبينا نحن على ذلك دخل رسول الله ﷺ علينا فسلم ثم جلس قالت: ولم يجلس عندي منذ قيل ماقيل قبلها، وقد لبث شهراً لا يوحى إليه في شأني بشيء قالت: فتشهد رسول الله ﷺ: حين جلس ثم قال:

أما بعد: ياعائشة! إنه بلغني عنك كذا وكذا فإن كنت بريئة فسيبرئك الله، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه فإن العبد إذا اعترف ثم تاب، تاب الله عليه).

فلما قضى رسول الله مقالته قلص دمعي حتى ما أحس قطرة منه فقلت لأبي: أجب رسول الله ﷺ عني فيما قال. فقال أبي: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ، فقلت لأمي: أجيبي رسول الله ﷺ فيما قال. قالت أمي: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ.

فقلت أنا جارية حديثة السن، لاأقرأ من القرآن كثيراً، إني والله لقد علمت لقد سمعتم هذا الحديث حتى استقر في أنفسكم وصدقتم به، فلئن قلت لكم إني بريئة لاتصدقوني - وإن اعترفت لكم بأمر - والله يعلم أني منه بريئة - لتصدقني فو الله لا أجد لي ولكم مثلا إلا أبا يوسف حين قال: «فصبر جميل، والله المستعان على ما تصفون» ثم تحولت واضطجعت على فراشي.

والله يعلم أني حينئذ بريئة وأن الله مبرئي ببراءتي ولكن والله ما كنت أظن أن الله منزل في شأني وحياً يتلى، لشأني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم الله فيّ بأمر ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ في النوم رؤيا يبرؤني الله بها.

فو الله مارام رسول ﷺ مجلسه ولا خرج أحد من أهل البيت حتى أنزل عليه، فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء حتى إنه ليتحدر منه من العرق مثل الجمان، وهو في يوم شات، من ثقل القول الذي أنزل عليه.

قالت فسري عن رسول الله ﷺ وهو يضحك فكانت أول كلمة تكلم بها أن قال: ياعائشة! أما الله فقد برأك قالت فقالت لي أمي: قومي إليه، فقلت: والله لا أقوم فإني لا أحمد إلا الله.

قالت وأنزل الله تعالى ﴿إن الذين جاؤا بالإفك﴾ (العشر الآيات) ثم أنزل الله هذا في براءتي.

قال أبو بكر الصديق وكان ينفق على مسطح بن أثاثة لقرابته منه وفقره: والله لا أنفق على مسطح شيئاً أبدا بعد الذي قال فأنزل الله ﴿ولا يأتل أولوا الفضل منكم﴾ إلى قوله ﴿غفور رحيم﴾.

قال أبو بكر الصديق: بلى والله إني لأحب أن يغفر الله لي، فرجع إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه، وقال: والله لا أنزعها منه أبداً، قالت عائشة: وكان رسول الله ﷺ سأل زينب بنت جحش عن أمري فقال لزينب ماذا علمت أو رأيت فقالت: يارسول الله أحمي سمعي وبصري والله ما علمت إلا خيراً[1].

والقطعة الثانية للصحابي الجليل كعب بن مالك الأنصاري يتحدث فيها عن قصته عندما تخلّف عن غزوة تبوك لأسباب غير

---

(١) صحيح البخاري.

هامـة، واستحق بذلك عتاباً ظهر من رسول الله ﷺ بإعراضه عنه، وبأمره لصحابته الآخرين أيضاً بالإعراض عنه حتى يحكم الله في أمره، ثم نزلت توبة الله سبحانه وتعالى عليه، يقول كعب رضي الله عنه بعدما يذكر بعض تفاصيل هذه القصة.

قال كعب: لم أتخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة غزاها إلا في غزوة تبوك، غير أني كنت تخلفت في غزوة بدر، ولم يعاقب أحد تخلف عنها، إنما خرج رسول الله ﷺ يريد عير قريش حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد، ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة حين تواثقنا على الإسلام، وما أحب أن لي بها مشهد بدر وإن كانت بدر أذكر في الناس منها، إلى أن يقول:

ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه فاجتنبنا الناس وتغيروا لنا، حتى تنكرت في نفسي الأرض فما هي التي أعـرف، فلبثنـا على ذلك خمسين ليلة فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان، وأما أنا فكنت أشب القـوم وأجلدهم، فكنت أخـرج فأشهـد الصـلاة مع المسلمين وأطوف في الأسواق ولا يكلمني أحد، وآتي رسول الله ﷺ فأسلم عليه، وهـو في مجلســه بعد الصلاة، فأقول في نفسي هل حرك شفتيه برد السلام علي أم لا؟ ثم أصلي قريباً منه فأسارقه النظر فإذا أقبلت على صلاتي أقبل إلي وإذا التفت نحوه أعرض عني، حتى

إذا طال علي ذلك من جفوة الناس مشيت حتى تسورت جدار حائط أبي قتادة وهو ابن عمي وأحب الناس إلي، فسلمت عليه فوالله مارد علي السلام، فقلت: ياأبا قتادة! أنشدك بالله هل تعلمني أحب الله ورسوله؟ فسكت، فعدت له فنشدته فسكت، فعدت له فنشدته فقال: الله ورسوله أعلم، ففاضت عيناي وتوليت حتى تسورت الجدار، قال: فبينا أنا أمشي بسوق المدينة إذا نبطي من أنباط أهل الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول: - من يدل على كعب بن مالك - فطفق الناس يشيرون له حتى إذا جاءني، دفع إلي كتاباً من ملك غسان فإذا فيه: أما بعد! فإنه قد بلغني أن صاحبك قد جفاك ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة فالحق بنا نواسك.

فقلت لما قرأتها وهذا أيضاً من البلاء، فتيممت بها التنور فسجرته بها، حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين إذا رسول رسول الله ﷺ يأتيني فقال إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك، فقلت: أطلقها أم ماذا أفعل؟ قال: لا بل اعتزلها ولا تقربها، وأرسل إلى صاحبي مثل ذلك فقلت لامرأتي: إلحقي بأهلك فتكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر، قال كعب: فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله ﷺ فقالت: يارسول الله إن هلال بن أمية شيخ ضائع، ليس له خادم فهل تكره أن

أخدمه، قال: لا ولكن لا يقربك، قالت: إنه- والله- ما به حركة إلى شيء، والله مازال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا، فقال لي بعض أهلي: لو استأذنت رسول الله ﷺ في امرأتك؟ كما أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه فقلت: والله لا أستأذن فيها رسول الله ﷺ وما يدريني ما يقول رسول الله ﷺ إذا استأذنته فيها وأنا رجل شاب.

فلبثت بعد ذلك عشر ليال حتى كملت لنا خمسون ليلة من حين نهى رسول الله ﷺ عن كلامنا. فلما صليت صلاة الفجر صبح خمسين ليلة وأنا على ظهر بيت من بيوتنا فبينا أنا جالس على الحال التي ذكر الله تعالى، قد ضاقت علي نفسي وضاقت علي الأرض بما رحبت: سمعت صوت صارخ أوفى على جبل سلع بأعلى صوته.

يا كعب بن مالك! أبشر، قال: فخررت ساجداً، وعرفت أن قد جاء فرج وأذن رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صلى صلاة الفجر، فذهب الناس يبشروننا وذهب قبل صاحبي مبشرون.

وركض إلي رجل فرساً وسعى ساع من أسلم فأوفى على الجبل وكان الصوت أسرع من الفرس، فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني نزعت له ثوبي فكسوته إياهما ببشراه، والله ما أملك

غيرهما يومئذ واستعرت ثوبين فلبستهما.

وانطلقت إلى رسول الله ﷺ فيتلقاني الناس فوجاً فوجاً يهنؤني بالتـوبـة، يقـولـون لتهنئك توبة الله عليك، قال كعب: حتى دخلت المسجد فإذا برسول الله ﷺ جالس، حوله الناس، فقام إلي طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحني وهنأني، والله ما قام إلي رجل من المهاجرين غيره ولا أنساها لطلحة.

قال كعب: فلما سلَّمت على رسول الله ﷺ، قال رسول الله ﷺ: -وهو يبرق وجهه من السرور- أبشر بخير يوم مرَّ عليك منذ ولدتك أمك، قال قلت أمن عندك يارسول الله أم من عند الله؟ قال: لا بل من عند الله.

وكان رسول الله ﷺ إذا سرَّ استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر، وكنا نعرف ذلك منه، فلما جلست بين يديه قلت: يارسول الله! إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسول الله، قال رسول الله ﷺ: أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك، قلت: فإني أمسك سهمي الذي بخيبر، فقلت: يارسول الله ﷺ! إن الله إنما نجاني بالصدق، وإن من توبتي أن لا أحدث إلا صدقاً ما بقيت، فو الله ما أعلم أحداً من المسلمين أبلاه الله في صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا أحسن مما أبلاني، وما تعمدت منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ

إلى يومي هذا كذباً وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقيت.

وأنـزل الله على رسـول الله ﷺ ﴿لقد تاب الله على النبي والمهاجرين﴾ إلى قوله ﴿وكونوا مع الصادقين﴾ فو الله ما أنعم الله علي من نعمـة قط بعد أن هداني للإسلام أعظم في نفسي من صدقي لرسول الله أن لا أكون كذبته، فأهلك كما هلك الذين كذبوا، فإن الله قال للذين كذبوا حين أنزل الوحي شر ما قال لأحد فقال الله تبارك وتعالى: ﴿سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم﴾ إلى قوله ﴿فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين﴾[1].

الالتزام بالطبيعة الإسلامية هو المبدأ الوحيد للأدب الإسلامي:

لقـد كانت الميزة الأساسية للأدب الإسلامي كما ظهر من النماذج المذكورة هو الالتزام بالطبيعة الإسلامية، وهذه الطبيعة لم تكن محدودة في أغراض أدبية خاصة، مثل طبائع أديان أخرى بحيث أنها تكـون محدودة في الأغراض الدينية وحدها، فآداب هذه الأديان لا تتصل بالحياة إلا في هذه المجالات وحدها، وأما المجـالات الـدنيوية من الحياة، فهي إما تشطب شطباً من أن يمثلهـا الأدب فيهـا، وإمـا تهمـل إهمالا فتمارس كما تمارس في الآداب الحرة الهاملة، ولذلك أصبح مفهوم الأدب المنسوب إلى

---

(١) البخاري كتاب المغازي.

دين هو مفهوم الأدب الديني لا غير.

الأدب الإسلامي واسع مع الالتزام:

أما الأدب الإسلامي فواسع مع الالتزام ومقيد مع الشمول، يتصل بجميع مجالات الحياة الدينية والدنيوية، ولكنه ملتزم في حدود الطبيعة الإسلامية، والطبيعة الإسلامية هي الفطرة التي فطر خالق الناس الناس عليها، ففيها سرور وحزن، وفيها شعور الارتياح والأسى، وسرور الرضا والسخط، وفيها العتاب والاستعتاب، والعفو والانتقام، والمباعدة والوئام، وليس الأدب في أي لغة من لغات البشر إلا حديثاً عن كل ذلك، ولا يفرض التوجيه الإسلامي على أدب المسلم إلا أن يتجنب السوء والخبث، وهذه هي الطبيعة التي فطر الناس عليها، والوحي المرسل من فاطر الفطرة إلى نبيه ﷺ أوضح لنا أبعاد الخير والشر فيها، كما أودع في الفطرة الإنسانية أيضاً شعوراً بذلك، فقد ورد في الحديث الصحيح، البر حسن الخلق، والإثم ما حاك في صدرك، وكرهت أن يطلع عليه الناس[1]

---

(١) صحيح مسلم.

الأقسام الكبيرة للأدب الإسلامي

الخطبة، الحديث، الرسالة:

ظهرت سعة الأدب الملتزم الإسلامي من نصوص كلام الرسول ﷺ وكلام صحابته وتنوعت إلى أنواع مختلفة، وتجلَّت في الأقسام الأدبية السائدة في عصرهم، وهي في الكلام المنثور، الخطبة والحديث، والرسالة.

كانت هذه الأقسام الأدبية هي العماد التي اعتمد عليها أدب عصرهم، ولكن تجلَّت القوة الأدبية في الخطبة والرسالة بصورة أكثر، لأنهما كانتا تنشئان باهتمام زائد، واشتدت حاجة الحياة الجديدة إليهما أكثرمن غيرهما، لشيوع عمل الدعوة، والتوجيه، والإرشاد، وظهور مهام الحكم والنظام.

أما الخطابة فقد اعتمدت على أسسها القديمة، وزانت نفسها بصور فنية جديدة، اقتبستها من البيان القرآني المؤثر

الرائع، وأضفى هذا الاقتباس والاستفادة عليها مزيداً من القوة والبراعة.

أما الرسائل فقد برزت بصورة أجلى وأقوى، وظهرت كقسم أدبي ملموس، وذلك لأن العرب بانتقالهم من جاهليتهم الأمية إلى الإسلام المثقف، خرجوا من انعزاليتهم البدوية إلى الجلوات الإسلامية الاجتماعية والسياسية، وكانت الرسائل من أجدى وسائل الإبلاغ، والتوجيه في حياة الاجتماع الجديدة، ولذلك مثل هذان القسمان الأدبيان أدب الصحابة رضي الله عنهم بصورة خاصة.

بلاغة سيدنا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه في الرسائل والخطب:

ولقد برز هذان القسمان في أدب الصحابي الجليل الخليفة الراشد الرابع علي بن أبي طالب بصورة أجلى وأقوى، وكان تربى رضي الله عنه تحت إشراف ابن عمه الرسول ﷺ وتلقى المؤهلات البيانية منه لقربه إليه، ولتوفر فرص الاستفادة منه، كما أن العهد الذي تولى فيه الحكم وإدارة النظام كان عهداً مضطرباً، تستدعي براعة القول والعمل كليهما، لجأ علي رضي الله عنه إلى اختيار وسائل البيان، فقد ظهر ذلك جلياً في خطبه ورسائله، وتوجد خطبه ورسائله كغيره من أصحاب البراعة في كتب

التاريخ، ولكن جانباً منها لا تؤخذ بعين الثقة الكاملة والاعتماد، التام لأن المبالغين في حبه رضي الله عنه قد بالغوا في رواية كل كلام منسوب إليه، مستحسن في نظرهم، ولذلك لا يؤخذ كلام سيدنا علي رضي الله عنه من كتب التاريخ ومن نهج البلاغة إلا بعد النقد لمضمون هذا الكلام وثبوت مستواه الخاص، لأن الصحابة رضي الله عنهم كانوا ملتزمين بالحياة الإسلامية، فلا بد أن يكون كلامهم أيضاً على هذا المستوى الرفيع من الالتزام الإسلامي.

تقريع وأسى:

أقدم هنا قطعاً مختارة من أدب علي بن أبي طالب كرم الله وجهه مقتبسة من خطبه ورسائله:

خطب سيدنا علي بن أبي طالب أمام أنصاره مبدياً تحسره على ذهاب أصحابه المثاليين المخلصين، وبقاء قلة قليلة منهم، مظهراً حنينه إلى هؤلاء السابقين يقول:

(هذا جزاء من ترك العقدة، أما والله لو أني حين أمرتكم بما أمرتكم به حملتكم على المكروه الذي يجعل الله فيه خيراً، فإن استقمتم هديتكم، وإن اعوججتم قَوَّمْتُكُمْ، وإن أبيتم تداركتكم، لكانت الوثقى، ولكن بمن وإلى من؟ أريد أن أداوي

بكم وأنتم دائي كنـاقش الشوكة بالشوكة وهو يعلم أن ضلعها معهـا، اللّهم قد ملت أطبـاء هذا الـداء الدوي وكلت النزعة بأشطان الركى، أين القوم الذين دعوا إلى الإسلام فقبلوه، وقرأوا القرآن فأحكموه، وهيجوا إلى القتال فولهوا وَلَهَ اللِّقاح إلى أولادها وسلّوا السيوف من أغمادها، وأخذوا بأطراف الأرض زحفاً زحفاً وصفّاً صفّاً: بعض هلك، وبعض نجا، لا يبشرن بالأحياء، ولا يعـزون بالمـوتى، مره العيون من البكـاء، خمص البـطون من الصيام، ذبل الشفاه من الدعاء، صفر الألوان من السهر، على وجوههم غبرة الخاشعين.

أولئـك إخواني الذاهبون! فحق لنا أن نظمأ إليهم ونعض الأيدي على فراقهم[1]

عزاء على وفاة سيدنا أبي بكر:

لما قبض أبو بكر رضي الله عنه سجى بثوب فارتجت المدينة بالبكاء عليه، ودهش القوم كيوم قبض رسول الله ﷺ فيه وجاء علي بن أبي طالب باكياً مسرعاً مسترجعاً حتى وقف بالباب، وهو يقـول: (رحمـك الله أبـا بكـر، كنت والله أول القوم إسلاماً، وأعـظمهم غنـاء، وأحفـظهم على رسول الله ﷺ وأحربهم على

(١) نهج البلاغة ومختارات.

الإسـلام وأحنـاهم على أهله، وأشبههم برسول الله ﷺ خلقاً وفضلا وهدياً وسمتاً، فجزاك الله عن الإسلام وعن رسول الله وعن المسلمـين خيراً، صدَّقت رسـول الله حين كذَّبـه الناس، وواسيته حين بخلوا، وقمت معه حين قعدوا، سمّاك الله في كتابه صدِّيقـاً فقال: ﴿والذي جاء بالصدق وصدق به﴾ يريد محمداً ويريدك، كنت والله للإسـلام حصناً وعلى الكافرين عذاباً، لم تفلل حجتـك، ولم تضعف بصـيرتـك ولم تجبن نفسـك، كنت كالجبل، لا تحركه العواصف، ولا تزيله القواصف، كنت كما قال رسـول الله ﷺ ضعيفـاً في بدنك قوياً في أمر الله، متواضعاً في نفسـك عظيماً عند الله، قليلا في الأرض كثيراً عند المؤمنين، لم يكن لأحد عندك مطمع ولا لأحد عندك هوادة، فالقوي عندك ضعيف حتى تأخذ الحق منه والضعيف عندك قوي حتى تأخذ الحق له، فلا أحرمنا الله أجرك ولا أضلَّنا بعدك)[1].

شرح وإيضاح للقضية:

ولـه رسالة يشرح فيها القضية التي كان وقع فيها كثير من الناس في شبهة والتباس، وهي قضية استشهاد عثمان بن عفان وولايته لأمر المؤمنين.

---

(١) العقد الفريد ج ٣.

(من عبد الله علي أمير المؤمنين إلى أهل الكوفة جبهة الأنصار وسنام العرب.

أما بعد: فإني أخبركم عن أمر عثمان حتى يكون سمعه كعيانه، إن الناس طعنوا عليه فكنت رجلا من المهاجرين أكثر استعتابه وأقل عتابه، وكان طلحة والزبير أهون سيرهما فيه الوجيف، وأرفق حدائها العنيف، وكان من عائشة فيه فلتة غضب، فأتيح له قوم فقتلوه، وبايعني الناس غير مستكرهين ولا مجبرين، بل طائعين مخيرين.

واعلموا أن دار الهجرة قد قلعت بأهلها وقلعوا بها، وجاشت (جيش) المرجل، وقامت الفتنة على القطب، فأسرعوا إلى أميركم، وبادروا جهاد عدوكم، إن شاء الله)[1].

كانت هذه طائفة من نماذج صدر الإسلام من الأدب المنثور، فقد كان أدب الرسول عليه السلام كله منثوراً، أما أدب غالبية الصحابة فكان منثوراً أيضاً لما رأوا من إيثار القرآن للكلام المنثورعلى الكلام المنظوم ونعيه على جانب كثير من الكلام الشعري المنظوم فاحترز الصحابة من المبادرة إلى الشعر على طريقتهم في عهدهم الجاهلي.

---

(١) نهج البلاغة.

أدب الصحابة رضي الله عنهم شعراً

شعر الصحابة رضي الله عنهم :

وبقي عدد من الصحابة رضي الله عنهم ممارسين للأدب الشعري المنظوم وذلك بسماح الرسول ﷺ وأمره بذلك ولاستحسانه للشعر الملتزم البناء، ولقوله إن للشعر تأثيراً أشد على الأعداء من تأثير النبل، وبذلك وجد الشعر لنفسه طريقاً مفتوحاً لأداء مسؤولية التعبير عما تجيش به النفوس من مشاعر وتأملات، وبدأ يشارك النثر في أداء الواجب، وأصبح الشعر ملتزماً بطبيعة الحياة الإسلامية في عهد الرسول ﷺ وعهد صحابته ولكن ما طال عليه الأمد إلا وبدأ يتبختر ويعربد، فيعد هذا الشعر أدباً غير إسلامي لأنه لم يلتزم، وإن كان مؤرخو الأدب يسمون كل شعر قيل إلى نهاية العهد الأموي شعراً إسلامياً، وهو اسم لتاريخه وليس لمراده ومضمونه.

الالتزام في شعر الصحابة ﷺ :

لقد كان شعر الصحابة رضي الله عنهم ملتزماً ولكنه مع تقيده بالطبيعة الإسلامية يتسع مع اتساع حياة عهده، ففيه سرور وحزن، ورضى وسخط، وعتاب واستعتاب، ووصف وحكمة.

نبغ من الشعراء الممثلين لهذا العهد سيدنا حسان بن ثابت الأنصاري بصورة خاصة، وقد أمره الرسول ﷺ بقول الشعر والمنافحة عن الإسلام ووضع له منبراً في مسجده الشريف ومدحة وفداه[1].

وشاركه من الشعراء سيدنا عبد الله بن رواحة، وسيدنا كعب ابن مالك، فهولاء ثلاثة من الشعراء، استخدموا الشعر للحياة الجديدة الإسلامية، وغيرهم في عدد كذلك، ولبعضهم جلالة شعرية مثل لبيد بن ربيعة صاحب إحدى المعلقات، والخنساء أكبر شواعر العربية في عهدها الأول، وعباس بن مرداس، والنابغة الجَعْدي، ولكنهم آثروا الحَيْطَة والزهد في ممارسة الشعر، أو لم يبلغوا مبلغ الثلاثة المتقدمين في قرض الشعر الإسلامي.

وأقدم هنا بعض النماذج المختارة من الشعر الإسلامي :

---

(١) انظر مسيرة ابن هشام.

نماذج شعرهم رضي الله عنهم

المديح :

يقول : شاعر الرسول ﷺ حسان بن ثابت رضي الله عنه في مدحه والدفاع عن الإسلام وذلك عند مناقضته لشعر زبرقان بن بدر.

إن الذوائبَ من فهرٍ وإخوتهم قد بيّنوا سنةً للناسِ تُتَّبعُ

يَرضَى بها كلُّ مَنْ كانت سريرتُه
تقوى الإلهِ وبالأمرِ الذي شرَعَوا

قومٌ إذَا حاربوا ضرّوا عدوَّهم
أو حاولوا النَّفعَ في أشْياعِهم نفعوا

سَجيةٌ تلك منهم غير مُحدثةٍ إن الخَلائقَ فاعلمْ شرُّها البِدَع

لا يَرقعُ الناسُ ما أوْهت أكفُّهمُ
عندَ الدفاع ، ولا يوُهونَ ما رَقَعوا

إن كان في الناس سباقون بعدهم فكلُّ سَبقٍ لأدنى سبقهم تَبَع
ولا يَضُنّونَ عن مولى بفضلهم ولا يُصيبُهم في مطمع طبع

لا يجَهلونَ، وإنْ حاولتَ جَهلهم
في فضل أحلامهم عن ذاك مُتسعُ

أعفة ذُكرتْ في الوحي عِفّتهمْ لا يَطْمعونَ، ولا يُرديهم الطمعُ
كم من صديقٍ لهم نالوا كَرامَته ومن عدوٍّ عليهم جاهدٍ جدَعوا
أعطَوْا نبي الهُدى والبر طاعتهم فما وَنَى نصرُهم عنه وما نَزَعوا

إن قال سيروا أجدّوا السير جهدَهُم
أو قال عُوجوا علينا ساعةً، رَبعوا

ما زال سيرُهم حتى استقاد لهم
أهلَ الصليب، ومن كانت له البِيَعُ

خذ منهم ما أتى عفواً إذا غضبوا ولا يكن همُّك الأمرَ الذي منعوا
فإن في حربهم فاترك عداوتهم شرًّا يخاض عليه الصاب والسلع
نسموا إذِ الحرب نالتنا مخالبها إذ الزعانفُ من أظفارِها خشعوا
لا فخر إن هم أصابوا من عدوهم وإن أصيبوا فلا خور ولا جزع
كأنهم في الوغى، والموت مُكْتَنِعٌ أُسد بيشة في أرساغها فدع
إذا نصبنا لقوم لا ندُبُّ لهم كما يدُبّ إلى الوحشية الذرع
أكرمْ بقومٍ رسولُ الله شِيْعتُهم إذا تفرَّقت الأهواءُ والشيَعُ

أُهدي لهم مدحيَ قومٍ يؤازره فيما يحبُّ لسانٌ حائكُ صنع
فإنهم أفضلُ الأحياء كلِّهم
إن جد بالناس جدُّ القول أو شَمَعوا[1]

شكوى واستعطاف:

يقول حسان بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه حينما وجد في نفوسهم شيئاً من الشكوى على إعطاء الغنائم لسادة مكة والمؤلفة قلوبهم وعدم وصولها إلى الأنصار:

زادتْ همومٌ، فماءُ العينِ ينحدرُ سَحًّا إذ أغرقَتْه عَبرةٌ دُرَرُ
وجداً بِشعثاءَ، إذْ شعثاءُ بهكَنةٌ هَيفاءُ، لا دنسَ فيها ولا خَوَرُ
دعْ عنك شعثاءَ إذْ كانت مودتها نزراً وشرُّ وصال الواصل النَّزرُ
وأْتِ الرسولَ، فقل يا خَير مُؤتَمَنٍ للمؤمنين، إذا ما عدل البشر
علام تُدعى سُلَيْمٌ، وهي نازحةٌ أمامَ قومٍ هم آووا، وهم نصروا
سمّاهم الله أنصاراً لِنَصرهم دينَ الهدى وعَوان الحربِ تستعرُ
وجاهدوا في سبيلِ الله واعْترَفوا للنائباتِ فما خاموا ولا ضَجِروا
والناسُ أَلْبٌ علينا، ثم ليس لنا إلا السيوفُ وأطرافُ القنا، وَزرُ
ولا يهُرُّ جَنابُ الحربِ مجلسَنا ونحن حين تَلظَّى نارُها سعر
وكم رددنا ببِدرٍ، دون ماطلبوا أهلَ النِّفاق، وفينا أُنزلَ الظَّفَرُ

---

(١) ابن هشام.

ونحن جندك يوم النعف من أحدٍ إذا حزبت بطراً أشياعها مضرُ
فما ونـــينــا ومــا خمنــا ومــا خبروا
منــا عشـاراً وجـلُّ القـوم قد عثروا[1]

الهجاء:

وهجا حسان بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه هُذَيلاً على خفرهم ذمة رسول الله ﷺ وقتلهم لوفده التعليمي الكريم غيلةً في موضع يسمى بالرجيع.

فلا والله ما تدري هذيلٌ أصاف ماءُ زمزم أم مشوبُ
ولا لهمُ إذا اعتمروا وحجُّوا من الحجرين والسعي نصيبُ
ولكنَّ الرجيع لهم محلٌّ به اللؤمُ المبينُ والعيوبُ
كأنَّهم لدى الكنَّات أصلاً تيوسٌ بالحجاز لها نبيبُ
هم غرُّوا بذمــتــهـــم خبــيبــاً
فبئس العهــد عهـدهُم الكـذوبُ[1]

الاعتذار:

قال عبد الله بن الزِّبَعْرَى رضي الله عنه حين أسلم معتذراً عن إبطائه في قبول الإسلام:

---

(١) سيرة ابن هشام.

منعَ الرقادَ بلابلٌ وهمومُ — والليلُ معتلجُ الرواق بهيمُ
مما أتاني أن أحمدَ لامَني — فيه فبتُّ كأنني محمومُ
يا خيرَ من حملتْ على أَوصالها — عيرانةٌ سرِحَ اليدين غشومُ
إني لمعتذرٌ إليك من الذي — أسديتُ إِذ أَنا في الضلال أَهيمُ
أَيامَ تأَمرني بأغوى خطبةٍ — سهمٌ وتأمرني بها مخزومُ
وأمدُّ أسبابَ الرَّدى ويقودني — أمرُ الغواة وأمرهم مشؤوم
فاليومَ آمنَ بالنبي محُمدٍ — قلبي ومخطىءُ هذه محرومُ
مضتِ العداوةُ وانقضت أسبابها — ودعت أواصرُ بيننا وحلومُ
فاغفر فدىً لك والداي كلاهما — زللي فإنك راحمٌ مرحومُ
وعليكَ من علم المليك علامةٌ — نورٌ أغرُّ وخاتمٌ مختومُ
أعطاكَ بعد محبةٍ برهانهُ — شرفاً وبرهانُ الإلهِ عظيمُ
ولقد شهدتُ بأنَّ دينكَ صادقٌ — حق وأنك في العباد جسيمُ
والله يشهد أن أحمد مصطفى — مستقبلٌ في الصالحين كريمُ
قرم علا بنـيانـه من هاشـم
فرع تمكَّـن في الـذرى وأرومُ[1]

مدح واعتذار:

قال حسان بن ثابت رضي الله عنه في مدح أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، في الاعتذار عما صدر منه من التكلم بالشائعات

---

(١) سيرة ابن هشام.

التي تكلم بها عدد من الناس في قضية الإفك:

حصانٌ رزانٌ ما تزنُّ بريبةٍ وتصبحُ غرثى من لحوم الغوافلِ

حليلةُ خيرِ الناسِ ديناً ومنصباً نبي الهدى والمكرمات الفواضلِ

عقيلةُ حيٍّ من لؤي بن غالبٍ كرامِ المساعي مجدُها غيرُ زائلِ

مهذبةٌ قد طيب الله خيمها وطهرها من كل سوءٍ وباطلِ

فإن كنت قد قلت الـذي قد زعمتم

فلا رفــعــت سوطـي إليَّ أنــامــلي

وإن الذي قد قيل ليس بلائطٍ بهاالدهر بل قول امرىء متماحلِ

فكيف ووُدي ماحييت ونصرتي لآل نبيٍّ الله زينِ المحافلِ

له رتبٌ عال على الناس كلهم تقاصر عنه سورة المتطاول

رأيتــكِ ولــيغــفِــرْ لك الله حرةً

من المحصنــاتِ غيرِ ذات غوائــلِ(١)

حب الموت في سبيل الله:

قال عبد الله بن رواحة ـ رضي الله عنه ـ في حب الشهادة في غزوة مؤتة:

إذا أَدَّيتني وحملتِ رحلي مسيرةَ أربع بعدَ الحساء

فشأنك أنعمٌ وخلاك ذمٌّ ولا أرجع إلى أهلي ورائي

---

(١) سيرة ابن هشام.

وجاء المسلمون وغادروني بأرض الشام مشتهيَ الثواء
وردك كل ذي نسب قريب إلى الرحمان منقطع الإخاء
هنالك لا أبالي طلعَ بعل ولا نخل أسافلها رواء

وقال وهو يحمل حملة شديدة:

أقسمت يانَفْسُ لتنزلنه لتنزلن أو لتكرهنه
إن أجلب الناس وشدوا الرنة ما لي أراك تكرهين الجنة
قد طال ماقد كنت مطمئنة هل أنت إلا نطفة في شنة

وقال:

يانفسُ إلا تقتلي تموتي هذا حِمام الموت قد صليت
وما تمنيتِ فقد أعطيتِ إن تفعلي فعلها هديت

وقال جعفر بن أبي طالب:

يا حبذا الجنة واقترابها طيبة وبارداً شرابها
والروم رومٌ قد دنا عذابها كافرةٌ بعيدة أنسابها
عليَّ إذ لاقيتُها ضرابِها

الرثاء:

شعر كعب بن مالك في رثاء قتلى مؤتة:

نام العيون ودمع عينك يهمل مسحاًكما وكف الطباب المخضل
في ليلة وردت علي همومها طوراً و تارة أتململ
واعتادني حزن فبت كأنني ببنات نعش والسماك موكل

وكأنما بين الجوانح والحشا مما تَأَوَّبني شهاب مدخل
وجداً على النفر الذين تتابعوا يوماً بمؤتة أسندوا لم ينقلوا
صلى الإله عليهم من فتية وسقى عظامهم الغمام المسبل
صبروا بمؤتة للإله نفوسهم حذر الردى ومخافة أن ينكلوا
فمضوا أمام المسلمين كأنهم فنق عليهن الحديد المرفل
إذ يهتدون بجعفرٍ ولوائه قدام أولهم فنعم الأول
حتى تفرجت الصفوف وجعفرٌ حيث التقى وعث الصفوف مجدل
فتغير القمر المنير لفقده والشمس قدكسفت وكادت تأفل
قرم علا بنيانه من هاشم فرعاً أشم وسؤدداً ماينقل
قوم بهم عصم الإله عباده وعليهم نزل الكتاب المنزل
فضلوا المعاشر عزة وتكرماً وتغمدت أحلامهم من يجهل
لا يطلقون إلى السفاه حباهم ويرى خطيبهم بحق يفصل
بيض الوجوه ترى بطونَ أكفِّهم
تندى إذا اعتذر الزمان المحل
و بهديهم رضي الإله لخلقه
و بجدهم نصر النبي المرسل[١]

مذمة وتقبيح :

يقول حسان بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه ذاماً لبغي شرذمة من الناس، وقتلهم للخليفة الثالث عثمان بن عفان رضي

---

(١) سيرة ابن هشام.

الله عنه:

أتركتم غزو الدروب وجئتم لقتال قرمٍ عند قبر محمدِ
فلبئس هدي الصالحين هديتمُ ولبئس فعل الجاهل المتعمدِ
إن تقبلوا نجعلْ قِرى سرواتكم حول المدينة كل لدن مذود
أو تُدبروا، فلبئس ماسافرتمُ و لمثل أمر أمامكم لم يهتدِ
وكأن أصحابَ النبي، عشيةً بدنٌ تُنَحَّر عند باب المسجدِ
فابكِ أبا عمرٍو لحسن بلائه أمسى مقيماً في بقيع الغرقد

وقال:

ماذا أردتـم من أخـي الخـير باركت
يد الله في ذاك الأديم المُـقْـدَدِ
قتـلتـم ولي الله في جَوْف داره
وجئـتـم بأمـرٍ جائـرٍ غيرِ مهتـدي
فهـلا رعـيتـم ذمـةَ الله وسْـطَكم
وأوفـيتـمُ بالـعـهـد عهـدِ محمـد
ألم يك فيكـم ذا بلاء ومـصـدق
وأوفـاكـم عهـداً لدى كل مشهـد
فلا ظفـرت أيمان قوم تظافـرت
على قتـل عثمان الـرشيد المسـدَّدِ(١)

---

(١) سيرة ابن هشام.

خصائص الشعر وميزاته
بين العهدين الجاهلي الإسلامي

شعر من العهد الجاهلي نال رضىً من الرسول ﷺ :

ومن الشعر الذي سمعه الرسول ﷺ ورضي به مع أنه قرض بلسان غير إسلامي وبسبك قديم، شعر قتيلة بنت الحارث في أخيها النضر بن الحارث الذي كان الرسول ﷺ قد أهدر دمه فقتل، ولكن رسول الله ﷺ سمع قصيدة أخته في الاستعتاب فقال لو سمعتها قبل قتله لعفوت عنه[1]، وهو أمر يدل على تفاعل نفسه ﷺ مع معاني هذه القصيدة، وقبول نفسه الكريمة للمسات هذا الشعر العاطفية الإنسانية، ومع أن هذا الشعر لايعد شعراً إسلامياً (بالاصطلاح المقرر) ولكنه يحمل روحاً مشابهة للروح الإسلامية والطبيعة الإسلامية، فهو شبه إسلامي.

---

(١) سيرة ابن هشام.

تقول:

يا راكباً إن الأثيل مظنةٌ ... من صبح خامسةٍ وأنت موفقُ
أبلغ بها مَيْتاً بأن تحيةً ... ماإن تزال بها النجائبُ تخفقُ
مني إليك وعبرةً مسفوحةً ... جادت بواكفها وأخرى تخنُقُ
هل يسمَعَنيّ النضر إن ناديته ... أم كيف، ميت لا ينطق
أمحمد يا خير ضَنء كريمة ... في قومها والفحل فحل معرق
ما كان ضرك لو مننت وربما ... مَنَّ الفتى وهو المَغيظُ المُحنق،
أو كنت قابلَ فديةٍ فَلَيُنْفِقَنْ ... بأَعزِّ ما يغلو به ما يُنْفَق
فالنضر أقرب من أسرْت قرابةً ... وأحقهم إن كان عتق يعتقُ
ظلت سيوف بني أبيه تنوشه ... لله أرحام هناك تَشَقَّقُ،
صبراً يقاد إلى المنية متعباً ... رَسْفَ المُقَيَّدِ وهو عانٍ موثقُ،

ذكر ابن هشام في كتابه، وقال: إن رسول الله ﷺ لما بلغه هذا الشعر قال: لو بلغني هذا قبل قتله لمننت عليه.

كذلك قصيدة «بانت سعاد» التي قرضها صاحبها بالسبك القديم ولكن في استعطاف رسول الإسلام ﷺ وبروح الوفاء للإسلام والخضوع له والحب لما يتلائم معه، فسمعها الرسول ﷺ وأجاز عليها كما كان يجازي على الشعر العربي الجيد في ذلك العهد، فدخلت القصيدة في نطاق الشعر الإسلامي وأصبحت خالدة لنيلها رضى رسول الله ﷺ وإجازته عليها، افتتحها صاحبها بقوله:

بانت سعاد فقلبي اليوم متبولُ   متيم إثرَها لم يفدَ مكبولُ
ومــا سعــادُ غداةَ الـبــينِ إذ رَحلوا
إلا أَغَنٌّ غضيضَ الـطرفِ مكحـولُ

إلى أن قال:

أُنبئت أن رسول الله أَوْعدني   والعفوُ عند رسول الله مأمولُ
مهلًا هداك الذي أعطاكَ نافلةَ   القرآنِ فيها مواعيظٌ وتنويلُ

كذلـك قصيدة النـابغـة الجعدي الذي دخل في الإسلام وأنشد قصيدته أمام الرسول ﷺ ولم يعترض إلا على بيت منها، ولكنـه رضي به بعـد الإيضاح الذي قدمه صاحبه له، وبذلك صارت القصيدة مرضيةً لدى رسول الإسلام فهي داخلة إذن في نطاق الشعر الإسلامي.

مدى إجادة الشعراء المخضرمين بعد إسلامهم:

لقـد أثـار النـاس جدلًا طويلًا حول جودة الشعر في ظل الإسـلام بالمقـارنـة مع الشعـر الجـاهـلي، وأرادوا بذلـك كلام المخضرمـين من الشعـراء، فقـالـوا إن شعـر حسـان بن ثابت الأنصاري قد ضعف بعد الإسلام، ولم يحمل من الروعة الأدبية ما حمله في الجـاهلية، وقـالـوا ذلـك عن الشعـراء المخضرمـين الآخرين الذين قرضوا الشعر في الجاهلية ثم زهدوا في قرضه في

الإسلام، فقد وصفهم هؤلآء بضعف الملكة الشعرية تحت ظل الإسلام.

هذا رأيهم ولكنه رأي لا يستوي عند مقارنة أمينة محايدة، لأن الشعراء الذين لم يقولوا شعراً أو زهدوا في قوله بعد ما أسلموا، مازهدوا فيه لعجزهم عن قول الشعر بل كان امتناعهم عن ذلك لسبب يتصل بهدفهم وغايتهم، وليس لشلل في قرائحهم، ويدل على ذلك أن رسول الله ﷺ، لما رأى منهم امتناعهم عن الشعر قال: «ما يمنع القوم الذين نصروا رسول الله ﷺ بسلاحهم أن ينصروه بلسانهم» فقال حسان بن ثابت الأنصاري: أنا لها يارسول الله، وأخذ بطرف لسانه وقال والله ما يسرني به مقول بين بصرى وصنعاء[١].

فقال رسول الله ﷺ: «كيف تهجوهم - يعني قريشاً - وأنا منهم» وذلك لأن الهجاء كان أشد سلاح من الأسلحة الشعرية عند عرب ذلك العصر، وكان شعراء قريش يستخدمونه للإيقاع بدعوة الرسول ﷺ ومكانته، ولم يكن ليرد عليهم إلا بالسلاح نفسه، فقال حسان: إني أسُلّك كما تسل الشعرة من العجين[٢]، وحقاً برز حسان أمام المعارضين بقوة دحضت حجاجهم الشعري وأبكتهم، ومن أمثلة ذلك أنّ وفداً أتى إلى رسول ﷺ كان يمثلهم

---

(١) سيرة ابن هشام.

(٢) أيضاً.

شاعرهم زِبرقان بن بدر، فاستدعى رسول الله ﷺ حساناً رضي الله عنه، فنقض قصيدة زبرقان بشعره القوي الذي ابتدأه بقوله :

إن الذّوائبَ من فَهرٍ وأخوتِهم قد بيّنوا سنّةً للناسِ تُتّبعُ

وهي قصيدة مؤثرة رائعة سبق ذكرها قبل صفحات .

فلم يكن سبب زهادة المسلمين في قول الشعر بعد دخولهم في الإسلام إلا انحيازهم للصدق والجد وواقعية الحق، وهو الذي تجلى في شعر الشعراء المسلمين الأولين الذين قالوا الشعر في العهد الجديد، وقد سبقت بعض أمثلتها في الصفحات الماضية .

منهج حسان بن ثابت الأنصاري في شعره الجاهلي :

أما حسان بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه وهو أعظم شعراء العهد النبوي الكريم، وقد اعتمد عليه الرسول ﷺ في قول الشعر، فقد كان في جاهليته يضرب على الوتر التقليدي في المدح والهجاء، ولكنه لما لامس الإيمان قلبه وغسل عنه أدران الجاهلية وأوضار الشرك تغير فأصبح لا يهجو أحداً إلا بالحق ولا يمدح إلا بالحق، ويقول الشعر الرصين، فقد أثبت براعته وروعته الشعرية بجدارة وقوة في عهده الجديد .

ولم يعد يهيم في كل واد شأن غيره من الشعراء الجاهليين

أخذ يكرس جهوده لتحقيق عالم تسوده المودة والاطمئنان، وسعى لتحقيق نظام أنزلـه الله تعـالى للبشرية وأرسل به رسولاً يهدي الناس سواء السبيل.

وقد مضى حسان يجدد لنا شعره ويضع ميزاناً جديداً للنقد والتعريف حيث قال عن الشعر وكيف ينبغي أن يكون:

وإنما الشعرُ لُبُّ المرء يعرضُه   على المجالسِ كيِّساً وإن حُمُقاً
وإن أشعرَ بيتٍ أنت قائلُه   بيتٌ يقال إذا أنشدتَه صَدَقاً

وبـذلـك نقض المبـدأ الجـاهلي للشعر وهو: «أبلغ الشعر أكذبه» ونادى بالمبدأ الجديد تحت شعار التربية النبوية الكريمة والتعليمات الهادفة[1].

فإن كان ترك الكذب والجوانب المنحرفة والإباحية في الشعر نقصـاً في الملكة الشعرية فنعترف بأن الشعر الإسلامي في هذه النـاحية ناقص، ويستحسن الإسلام هذا النقص، لأن طبيعة الإسلام هي الكرامة والسناء، وهي تأبى معالجة الجوانب العفنة في الكلام

طبيعة الانصراف إلى جوانب شعرية دون غيرها:

ثم إن طبيعة حب لجوانبَ وزهدٍ في جوانب أخرى في الشعر

---

(١) شاعر الاسلام للأستاذ وليد الأعظمي.

ليست أمراً غريباً في مجال الشعر، فقد وجدت وتوجد لهذه الطبيعة نماذج كثيرة في الشعر والأدب، في كل فترة من فترات التاريخ باختلاف الأوضاع والأحوال، واختلاف الظروف والأدوار

وليس الأدب الإسلامي في هذه الخصيصة وحيداً، وذلك لأن وجهات النظر والقيم السارية في البيئات المختلفة تترك لمساتها على تأملات أصحابها ومشاعرهم وتضبطها لأطرها ومبادئها، ثم إن قواعد الاستحسان والاستهجان تختلف في شعب وطائفة عن شعب آخر وطائفة أخرى،فلم يكن كل ما افتخر العرب به لائقا في نظر غيرهم للافتخار، والعرب أنفسهم لما انقسموا بين أهل المدر وأهل الوبر انقسموا إلى نظرات ومبادىء معينة في البداوة والحضارة، يعتز الواحد منهم بما لا يعتز به الآخر، فحب البادية يبعث الشاعر على أن يقول:

ومَنْ تكنِ الحضارةُ أعجبتهُ فأيَّ رجالِ باديةٍ ترانا
ومَنْ ربطَ الجحاش فإن فينا قنى سلباً وأفراساً حساناً[1]

يعلن الشاعر البدوي بذلك التزامه لأفكار البادية واستحسانه لها، واستهانته بخواطر الحضارة والكراهة لها، وحينما يقرض الشعر يزوده بمعاني حياته المادية وذكر مرافقها، فيطيل مثلاً في وصف الناقة كما فعل طرفة بن العبد، أما الشاعر

---

(١) ديوان الحماسة لأبي تمام.

الحضري فيختار إطاراً آخر ويلتزم به، كما نجده في شعر امرىء القيس فقد كان متحضراً إلى حد ما.

لايخلو أديب من الالتزام:

إن الالتزام بقيم وآراء في النطاق الاجتماعي والقومي سواءاً كان مدنيًّا أو ثقافيًّا أو كان دينياً يفرض سيطرته على أقوال الناس وعلى اتجاهاتهم كثيراً، والأدباء والشعراء ـ وهم جزء منهم ـ يعبرون عن هذه الاتجاهات والميول، ولما جاء الإسلام تبدلت القيم واصطبغت بصبغة دينية محافظة فإذا كان الأدب الجديد متكيفاً بالروح الجديدة، وملتزماً بالمحافظة على اتجاهات والزهد في اتجاهات، فليس أمراً غريباً ولا عيباً على الأدب الإسلامي، وإن وجدنا فيه غرابة فلماذا لا نستغرب من الأدب الشيوعي والاشتراكي الذي يكثر الالتزام بعقلية اقتصادية واضحة، ويتقيد بروح أكثر ما نجد فيها هو الجفاف والخواء، والضرب على وتر واحد من الحياة لا يجاوزه، فالأديب مهما كان حراً في أدبه لا يخلو من تقيد والتزام كان قليلاً أو كثيراً، أو كان واضحاً أو خفيًّا.

فتح شعراء الإسلام لأبواب جديدة في الشعر:

ثم إن شعراء الإسلام قد استبدلوا تلك الجوانب التي تركوها أو زهدوا فيها بجوانب جديدة لم تكن في الشعر السابق، وهي

جوانب الدعوة وجوانب الأمل في خير الآخرة، وجوانب حب الله ورسوله، فالجانب الدنيوي من الشعر قد يكون مشتركاً بين عهدين، لكن جوانب الدعوة وجوانب الحب لله والحب لرسوله والحنين إلى لقاء الله والحذر من عقاب الآخرة أبواب جديدة في الشعر الإسلامي، حلت محل الإباحية والشهوانية وحب المتاع الزائل والهوى السافل التي تركها وزهد فيها شعراء الإسلام، انظروا الجانبي فيما يأتي.

يقول القطامي وهو شاعر عربي غير مسلم يذكر الفلسفة الجاهلية للقتال:

وكُنْ إذا أَغَرْنَ على جنابٍ وأعوزَهُنَّ نهبٌ حيث كانا
أَغَرْنَ من الضباب على حلولٍ وضبة إنه من حان حانا
وأحياناً على بكرٍ أخينا إذا ما لم نجد إلا أخانا(١)

ويقول الشاعر الإسلامي في الحرب مع جيش مسيلمة:

أقول لنفسي حين خوَّدَ رألُها مكانك لما تشفقي حين مشفقي
مكانك حتى تَنْظري عم تَنْجلي عمايةُ هذا العارضِ المتألقِ

وكوني مع التالي سبيلَ محمدٍ
وإن كَذَبَتْ نفس المقصر فاصدقي

---

(١) ديوان الحماسة لأبي تمام.

إذا قال سيف الله كرُّوا عليهم
كررنا ولم نحفَل بقول المُعَوِّق[1]

فنحن حينما نقارن بين الشعر الجاهلي والشعر الإسلامي نتجاهل أن الشعر الإسلامي قد طرق أبواباً جديدة وفتح آفاقاً جديدة من الشعر، وأجاد في هذه الأبواب الجديدة من الشعر، ونتهم شعراء الإسلام جزافاً بأنهم لم يقولوا الشعر الحسن كما قاله شعراء الجاهلية.

المقارنة بين شاعرين يجب أن تكون بمعيار شعري واحد:

إننا حينما نقارن بين شعر شاعر جاهلي وشعر شاعر آخر من بين فحول عهدهما، لا نقارن بينهما في غرض واحد معين لأن قوتيهما ونبوغيهما لا يتركزان في أغراض واحدة، فإن الإجادة لدى شاعر تتجلىّ في غرض من أغراض الشعر، وهي لا تتجلى في شعر الأخر، فهل نقارن بين النابغة وامرىء القيس في أغراض واحدة؟ أليست لكل واحد منهما مجالات مختلفه عن مجالات الآخر في القوة والبراعة؟ فلماذا لا نقول: إن امرىء القيس ضعيف في الشعر لأنه لم يحسن الاعتذار والاستعطاف، وإن النابغة ضعيف في الشعر

(١) ديوان الحماسة لأبي تمام.

لأنـه لم يحسن في وصف الخيل والصيد كامرىء القيس؟ فلماذا نقيس الشعر الإسلامي بما لا نقيس به الشعر غير الإسلامي؟ فإن الشعر الإسلامي إن ترك بعض المجالات القديمة لسبب له وزنه وقيمته فقد خص مجالات أخرى بإجادة أكثر، وظهرت براعته فيها بالعكس من الشعر غير الإسلامي.

فإن لكـل شاعر مجالات في القول، ولكل عهد مجالات، فمن الإنصاف أن نَزِنَ الشعر في مجالات قائله وعهده.

بلاغة شعر حسان بن ثابت الأنصاري وجودته في الإسلام:

وقد تبين من دراسة شعر سيدنا حسان بن ثابت الأنصاري أن الأثر الذي كان يتركه بشعره على النفوس في عهده الإسلامي كان أكثـر مما كان تركـه في عهـده الجاهلي، وإن كان شعره قد اشتمل في العهد الجاهلي على روائع عديدة مما له سهم كبير في رفع مكانته بين الشعراء، ولكن دوره الشعري في العهد الإسلامي هو الذي بلغ به إلى مكانته الشعرية الخالدة التي بلغها، ولو لم يكن ذلـك لكان واحداً من عشرات الشعراء الذين عُرفوا بالإحسان الشعري في العهد الجاهلي، فالشعر الإسلامي هو الذي ميزه بين الأقـران ورفـع مكـانتـه من بين معاصريه من الشعراء، ثم إن الإسلام هو الذي حمله على اعتصار قريحته في مجالات جديدة، واستخراج اللآلىء من الشعر الرقيق الرصين في موضوعاته، وكان

ذلك إضافة مثرية إلى عدد من قصائده البديعة الرائعة التي قالها في عهده الجاهلي في مدائح ملوك غسان والحيرة، وبخاصة قصيدته اللامية التي نالت الإعجاب والتقدير العظيمين، وقررت مكانته الشعرية بين الشعراء، ولكن قصائده في عهده الإسلامي وهي قصائد مصطبغة بالصبغة الإسلامية المحافظة، وخاصة قصائده في مدح الرسول ﷺ، فهي ممتازة بالروعة والإجادة وبدقة الوصف رغم تقيده بالإطار الإسلامي للشعر، وهناك فرق كبير بين أن يقول الشاعر ما يقوله بدون تقيد بإطار وبالتقيد بإطار، فإذا لم تضمحل جودته مع التقيد كان أبلغ وأبرع ممن يجيد وهو حر وغيره متقيد، ويدل على ذلك أنه هجا قريشاً ولم يصب هذا الهجاء ابن قريش العظيم محمد بن عبد الله الهاشمي القرشي.

نموذج من هجائه:

فهو يهجو ابن عم الرسول ﷺ أبا سفيان وكان كافراً في ذلك الوقت ردّاً على هجاءه فيقول:

وقال الله: قَدْ أرسلتُ عبداً	يقولُ الحق إن نفع البلاءُ
شهدتُ به، فقوموا صدِّقُوه،	فقلتم: لا نقومُ ولا نشاءُ
لنا في كل يوم من معدٍّ	سبابٌ، أو قتالٌ، أو هجاءُ
فنحكُم بالقوافي من هجانا	ونضرِب حين تختلط الدماء
ألا أبلغ أبا سفيان عني،	فأنت مجوّفٌ نخبٌ هواءُ

فإن سيوفنا تركتك عبداً وعبدُ الدار سادتها الإماء
هجوت محمداً فاجبت عنه، وعند الله في ذاك الجزاء
أتهجوه ولست له بكفءٍ فشرُّكما لخيركما الفداء
هجوت مباركاً، برّاً حنيفاً أمين الله، شيمته الوفاء
فمن يهجو رسول الله منكم ويمدحه وينصره، سواء؟
فإن أبي ووالدَه وعِرضي لعرضِ محمدٍ منكم وِقاء
لساني صارمٌ لا عيبَ فيه وبحري لا تُكَدِّرُه الدِّلاء

وقد هز بشعره الإسلامي نفوساً أكثر عدداً من النفوس التي هزها بشعره الجاهلي، فقد كانت مدائحه في الغساسنة من جيد شعره، وقد حاز بها الصيت والمكانة في نظر الدارسين للشعر الجاهلي، ولما أتى شعره الإسلامي كان تأثيره على نفوس أكثر عدداً وأوسع نطاقاً، وأصبح به متميزاً فريداً دون أقرانه جميعاً في التاريخ.

نموذج من رثائه:

ومراثيه في رسول الله ﷺ من أقوى المراثي وأشدها تأثيراً على النفس مع حَيْطة كاملة للقيم الإسلامية التي تقيد بها في البكاء على الميت مهما يكن عزيزاً ومحبوباً، إنه يعبر عن كل ذلك في لفظ جَزْل وعاطفة مؤثرة مصورة، يقول:

ما بالُ عينك لا تنام كأنما كُحِلَتْ مآقيها بكحل الأرمد

جزعاً على المهدي أصبح ثاوياً ياخير من وَطَأَ الحصى لاتبعد
نفسي تقيك الترب، لهفي ليتني غَيبت قبلك في بقيع الغرقد
بأبي وأمي من شهدت وفاته في يوم الاثنين النبي المهتدي
فظللتُ بعد وفاته متبلداً يالهف نفسي ليتني لم أولد
أأُقيم بعدك بالمدينة بينهم ياليتني صَبَّحت سُمَّ الأسود
يابِكْرَ آمنة المباركَ ذكره ولدتك مُحصنةً بعد الأسعد
نوراً أضاء على البرية كلها من يهُد للنور المبارك يهتدِ
يارِبِّ! فاجمعنا معاً ونبيَّنا في جنةتَثْني عيون الحُسَّدِ
والله أسمع ما لقيت بهالكٍ إلا بكيت على النبي محمد
صلى الإله ومن يحُفُّ بعرشه والطيبون على المبارك أحمد

ويقول: رضي الله عنه.

بطَيْبَةَ رسمٌ للرسول ومعهدُ منيرٌ، وقد تعفو الرسوم وتهمدَ
ولا تنمحي الآيات من دارِ حرمةٍ بها مِنْبرُ الهادي الذي كان يصعدُ
معالمِ لم تطمس على العهد آيهُا أتاها البِلى، فالآيُ منها تجَددُ
عرفت بها رسمَ الرسول وعهدَه وخيراً به واراه في الترب ملحد
أطالت وقوفاًتذرف العين جهدها على طلل القبر الذي فيه أحمدُ
لقد غيبوا حلماً وعلماً ورحمةً عشيةَ علَّوْه الثرى لا يوسد
وراحوا بحزن ليس فيهم نبيهم وقد وهنت منهم ظهور وأَعضدُ
يبكـون من تبكي السماوات يومه ومن قد بكته الأرض والناس أكمد

فأصبح محموداً إلى الله راجعاً يبكيه جفن المرسلات ويحمَدُ
وأمست بلاد الحرم وحشاً بقاعها لغيبة ما كانت من الوحي تعهدُ
قفاراًسوى معمورة اللحد ضافها فقيداً، يَبكِّيه بلاد وغرقدُ
ومسجده فالموحشات لفقده خلاء له فيه مقامٌ ومقعدُ
فَبَكِّي رسولَ الله ياعينُ عبرةً ولا أعرفنك الدهرَ دمعُك يجمُدُ
ومالك لا تبكين ذا النعمة التي على الناس منها سابغٌ يتغمدُ
فجودي عليه بالدموع وأَعْوِلي لفقد الذي لا مثلَه الدهرُ يوجدُ
وما فقد الماضون مثل محمدٍ ولا مثله حتى القيامة يُفقدُ
أَعفُّ وأوفى ذمةً بعد ذمةٍ وأقربُ منه نائلاً، لاينكدُ
وأبذلُ منه للطريف، وتالد إذا ضن معطاءُ لما كان يتلدُ
وأكرم حيّاً في البيوت إذا انتهى وأكرمُ جدًّا أبطحياً يسودُ
رباه وليداً فاستتم تمامه على أكرم الخيرات ربٌّ ممجدُ

وصف الشعر الإسلامي بالضعف من عمل الحاقدين على الإسلام:

فتبين من الأمثلة أن شعره في الإسلام لم يضعف ولم يذهب عنه رواؤه، وإن كانت بعض الأغراض الشعرية قد خفتت في كلامه لعدم موافقتها للقيم الإسلامية التي التزم بها المخضرمون من الشعراء، وهذه الجوانب هي المبالغات الكاذبة، والمهاترات الساقطة والتملق والإطراء، والخواطر الآثمة.

وإن وصف الشعر الإسلامي بصفة الضعف والسقوط بالنسبة إلى الشعر الجاهلي وصف بدأه الحاقدون على الإسلام والناقمون على كل ما ينتسب إلى الإسلام، أما الذي يسبر الشعر الإسلامي على لآليه ودرره بالحياد والإنصاف يجد منها ما لا يقلُّ عما يجده في الشعر الجاهلي، بل ويجد أكثر منه.

تنويع المديح وتفريع المديح النبوي منه:

ويجنب ما ابتكره الشعر الإسلامي من أبواب جديدة للشعر ونوع بعض أغراضه الرائعة تنويعاً، منه تنويعه للمديح، وابتكار نوع منه هو المديح النبوي، الذي سار في الناس على مر العصور والأزمان كنوع شعري بذاته وسمي بالنبويات بالعربية وبالنعت، بالفارسية والأردوية، ونبغ فيه طائفة من الشعراء، ونالوا تقديراً بالغاً منهم في هذا النوع، وهذا النوع الشعري الجديد من المديح امتاز بجمعه لخصائص النسيب الرقيق بالمديح البليغ، واجتمع فيه التعظيم مع الحب، تعظيم لا كتقديس لأن التقديس لله وحده، وحب لا كحب النساء لأنه مجال الغرائز الساقطة والخواطر السافلة.

ظهر هذا النوع الشعري في شعر الشعراء المخضرمين ثم استمر بعده في التاريخ، في الشعراء المسلمين وفي لغات الشعوب الإسلامية الأخرى كذلك، ولا يزال إلى اليوم، ومن نماذج هذا

النوع من الشعر في كلام سيدنا حسان بن ثابت الأنصاري :

وأحسن منك لم تر قطُّ عيني   وأجمل منك لم تلدِ النساءُ
خلقت مبرّأً من كل عيبٍ   كأنك قد خلقت كما تشاءُ

ويقول :

أغرُّ، عليه للنبوة خاتم   من الله مشهود يلوح ويشهدُ
وضم الإله اسم النبي إلى اسمه   إذا قال في الخمس المؤذن أشهدُ
وشق له من اسمه ليُجلَّهُ   فذو العرش محمودٌ، وهذا محمَّدُ
نبي أتانا بعد يأسٍ وفترة من   الرسل والأوثان في الأرض تعبدُ
فأمسى سراجاً مستنيراً وهادياً   يلوح كما لاح الصقيلُ المهندُ
وأنذرنا ناراً، وبشر جنةً   وعلمنا الإسلام فالله نَحْمَدُ

وتعتبر قصيدة كعب بن زهير في مدح الرسول ﷺ عند قدومه إليه معتذراً عن إساءاته الماضية من أساسيات هذا النوع الشعري أيضاً، قلدها الشعراء بعده في العهود الإسلامية، وهي تسمى بقصيدة البرُدة وقصيدة بانت سعاد.

شعر الخلفاء الراشدين :

ولقد رُوي عن الخلفاء الراشدين أيضاً قول الشعر ولكنه لم يزد عن نُتف شعرية وأبيات قلائل، وقد اختلف أيضاً في نسبتها إليهم، ويبدو من انصرافهم إلى المهام الدعوية والدينية وصحبتهم القريبة لرسول الله ﷺ أنهم لم يجدوا في نفوسهم حاجة

إلى العكوف على الشعر والاشتغال به، ولا يمكن الاشتغال بالشعر وقوله إلا مع الفراغ. أما الانصراف إلى شؤون تملأ كل فراغ في حياة الرجل فإنما يصرفه أول ما يصرفه عن الشعر، ألسنا نجد امرأ القيس ملك الشعراء الجاهلين لما انصرف إلى جمع العدة والعتاد لأخذ الثأر من أعداء والده المقتول تضاءل اهتمامه بالشعر، واضمحلت الروعة في كلامه بالنسبة إلى كلامه السابق الذي كان قَرَضَهُ في فراغ وانطلاق.

فلم يكن عجباً في أن الصحابة المنصرفين إلى أعمال الدعوة والجهاد لم يعكِفُوا على الشعر، أو أنهم صرفوا اهتمامهم عنه مع أن مشاركتهم في الأدب المنثور معروفةٌ وكبيرة، وذلك لأن مجالات عملهم في الإسلام تلاءمت مع عدد من موضوعات الأدب المنثور، ولم يقرضِ الشعر في الإسلام إلا الشعراء الممارسون لقول الشعر قديماً، أما في العهد الجديد فلم يقرضوا إلا عندما وجدوا مجالاً لائقاً لقرضه ومرضيّاً عند الله، ورسوله وبوجه خاص الشعراء الذين أراد منهم رسول الله ﷺ أن يقرضوا الشعر دفاعاً عن الإسلام، وهم شعراء الأنصار رضي الله عنهم بصورة خاصة، وامتاز حسان بن ثابت الأنصاري من بينهم بلقب شاعر الإسلام وشاعر الرسول ﷺ.

كان الشعر الإسلامي أداة تأثير وبمثابة سلاح ضد العدو في الإسلام:

لقد ظهر من حث رسول الله ﷺ على قول الشعر أنه ﷺ كان يعد الشعر سلاحاً مؤثراً ضد العدو، وهو لقوله في فتح مكة حينما سمع أن عمر بن الخطاب أنكر على قائل للشعر: دعوه، فإنه أشد عليهم من النبل وقوله لحسان بن ثابت الأنصاري: فداك أبي وأمي [1]

على الدرب الإسلامي للشعر:

في هذا الغمار من هجر الشعر والإقبال عليه درج الشعر الإسلامي فكان في أول أمره حذراً آخذاً بالحيطة الشديدة، تاركاً لمجالات كثيرة من الشعر وطارقاً لمجالات معينة ثم مشى على درب اهتدى إليه بفهم تعليمات الإسلام، فكان درباً إسلامياً للشعر، ثم تطور في هذا الدرب، وظهرت ابتكارات استطاع بها أن يكون شعراً قوياً متماسكاً ممتازاً بخصائصه، وهي خصائص تتفق مع خصائص الشعر القديم فيما تلاءمت مع الإسلام وتختلف عن خصائص الشعر الجاهلي فيما تعارضت مع الإسلام.

---

(١) سيرة ابن هشام.

المحتـــــــويات

أدب الرسول ﷺ

أدب صحابته ﷺ نثراً

أدب الصحابة رضي الله عنهم شعراً

خصائص الشعر وميزاته بين العهدين الجاهلي والإسلامي